

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاَّ مَا أَصلَحَ أَوَّلَهَا

العدد الثامن عشر

محرم/صفر 1431 ـ الموافق لـ جانفي/فيفري 2010

مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

السعر: 100 دج رقم الإيداع: 3623 ـ 2010 ISSN: 1112 ـ 6825



أيها القراء الكرام

نرجب بكل مقال علمي مفيد

ونسعد بكل نقد هادف سديد

فمجلة «الإصلاح»

وسيلة لنشر العلم النافع

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

المراسلات:

ص ب 640 ـ 16008 الجزائر

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@maktoob.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَستَعينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آل عِمۡرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

في هذا العدد

الافتتاحية

«الإصلاح» تدخل عامها الرابع

انسلخت ثلاثُ سنوات من عمر مجلّتنا الغرَّاء: «**مجلة الإصلاح**»، الَّتي أراد أصحابها أن تكون أداةً لنشر الإسلام المصفَّى، ووسيلةً تنوِّه بمحاسن شرع اللَّه الحنيف، ودينه القويم، ومنبرًا للدَّعوة إلى اللَّه y في زمن كثُر فيه الانشغال بالباطل عن الحقِّ، وباللَّهو عن الجِدِّ، وبالزَّائف الدَّخيل عن الأصيل.

إنَّ مفهوم الإصلاح أوسع وأشمل من أن تحصر معناه صفحات مجلَّة؛ لكنْ حسبُ القائمين عليها والمشاركين بالكتابة فيها محاولةُ تغطيةِ، ولو جزءٍ قليل من ميادين الإصلاح؛ أداءً للأمانة، ونصحًا للأمَّة، وتبرئة للذِّمَّة.

لقد سدَّت المجلة بظهورها ـ ولله الحمد والمنَّة ـ ثغرةً في المجال الدَّعوي، والعمل الإصلاحي في المجتمع الجزائري، لا يُنكر ذلك إلاَّ جاهل أو جاحد، وليس هذا الجهد محلَّ رضا أصحابه عنه، بحيث يرون الكمال فيما يقومون به.

أبدًا؛ فهم غير راضين عن عطائهم، وعمَّا يقدِّمونه في هذا الباب العظيم، إذ الرِّضا بالعمل النَّاقص زورٌ وغُرورٌ.

ومع ذلك كلِّه؛ فقد حرصت المجلَّة أن تضع بصماتها في مناسبات عدَّة كدليل مادِّيٍّ شاهد على حضورها.

فكانت لها كلمتُها الواضحة البيِّنة ـ وفق المنهج السَّلفي ـ في أكثر منْ حَدَث، بما سطَّرته هيئة التَّحرير في طلائع أعدادها، وبما دبَّجته يراع ثلَّةٍ من المشايخ الكرام الكاتبين فيها مما زاد من جمال المجلَّة المعنويِّ، ومن وزنها ومردودها الدَّعويِّ والإصلاحي.

هذا؛ وقد اهتمَّت المجلَّة فيما سبق نشره من أعداد؛ بأن تكون مواضيعها متنوِّعة، وبأساليب متفاوتة، خادمة للهدف المسطَّر عندها، من نشر التَّوحيد والدَّعوة إليه، والذَّبِّ عنه، وإحياء السُّنن، ونشر الفضائل، والتَّحذير من الشِّرك ووسائله، وإماتة البدع وطمس الرَّذائل؛ مراعيةً في ذلك كلِّه لغةَ العلم، وسهولة العبارة، حتَّى يحصل الفهم والاستيعاب من غير تشويش ولا ارتياب.

ومحاولةً ـ ما استطاعت ـ أن تختار من المواضيع ما يدعو إلى قراءتها والانتفاع بها، ـ حسب ما يرد إليها ويصلها ممَّا هو على شرطها ..

فليس المقصود من المجلَّة الفئة النَّخبويَّة العلميَّة، وإنَّما المقصود الوصول إلى عامَّة القرَّاء، حتَّى غدت ـ بفضل الله وحده ـ نبراسًا للعامِّيِّ والمبتدي، وتذكرةً لطالب العلم والمنتهي.

إنَّ الأمَّة إذا انحرف تفكيرها، واعوجَّ سلوكها، واختلَّ تصوُّرها؛ يحتاج من يريد أن يردَّها إلى رشدها، وينهاها عن غيِّها إلى عِلْم يدحض به زُخْرُفَ القول والباطل، وصدق يبدِّد ظلمات اليأس والقنوط، وصبر يواجه به الضُّغوطات من مختلف الجهات والمستويات، وحلم يعالج به الحماقات والسَّفاهات.

ومن ذلك ما سمعناه ونسمعه ممَّن يصنِّف المجلَّة وأصحابَها ـ ظلمًا وعدوانًا ـ تحت مظلَّة قد حاكها فكرُه، وفصَّلها وهمُه، وخطَّها بنانُه، ثمَّ نشرها بين النَّاس لسانُه، ممَّن يحاول التَّنقيص منها والتَّزهيد في اقتنائها وقراءتها.

فتارة يَلْمِزُ أهلَها بالفساد، وتارةً يَصِفُ مواضيعها المطروقة بكونها عِجافًا، وذات أساليب ضِعاف!.. رأس مال المسكين في ذلك العويل والتَّضليل، وقلبُ الحقائق واصطناعُ الأقاويل.

ورغم اطِّلاع إدارة المجلَّة على كلام هؤلاء وأمثاله؛ إلاَّ أنَّها لم تتنزَّل ـ أبدًا ـ لدركَتِهم، ولم تُجارِهم في غيِّهم وسفههم، ولم تلتفت لأقاويلهم لا إصغاءً ولا ردًّا، حتَّى لا يذهب وقتها الثَّمين في بيان الكذب الواضح والمَيْن من أمثال هؤلاء المفلسين! وحتَّى لا تلج معهم في خصام عقيم، ليس من صالح المجلَّة الخوض فيه، ولا منْ مصلحة القرَّاء الكرام؛ وأكثرهم ـ بحمد الله ـ ممَّن يفرِّق بين الغثِّ والسَّمين.

فكان لزامًا على إدارة المجلَّة وطاقم تحريرها البقاء على خطِّها الدَّعوي، وخطَّتها الدِّعائيَّة، غير ملتفتة لِهُوَاة قَتْلِ الطَّاقات والقدرات، ولا مكترثة بمن صار تخصُّصُه تثبيط الإرادات والعزمات! والاشتغال بالهَفوات والهَنات.

إنَّه غير خاف على العاقل الحَصِيف ما للإعلام من أَثَر في توجيه حياة النَّاس، فأكثر الخلق يعيش غيبوبة قد اصطنعها هذا الإعلامُ واختلقها بوسائله المتنوِّعة، فمن الكذب البَيِّن السَّافر تارةً، إلى الحقيقة المضخَّمة ـ أكثر من حجمها ـ تارةً أخرى، وتوالت على النَّاس الأحداث سراعًا، وتوالى النَّاس على تحليلها والتَّعليق عليها حثاثًا ـ كلٌّ حسب رأيه وفهمه وذوقه ـ، قلَّ منهم من يردُّ الأمر إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ وأولي الأمر منهم، ولو كان من أمور الأمن والخوف، والله ـ جلَّ وعلا ـ يقول: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

وما أن يفيق النَّاس من حَدَث حتَّى تتلوه أحداثٌ أخرى، تكاد تنسي ما سبق، فمن الأزمة الماليَّة إلى حُمَّى الكُرة المستديرة! ثمَّ آخرًا ـ لا أخيرًا ـ أنفلونزا الخنازير. وسمعنا قريبًا بأنفلونزا الماعز!!! غشاوة أذهلت النَّاسَ عن التَّمييز والإدراك، وسحابة أغشت سماء واقعهم حتَّى أضحى حبيس صحف وقنوات، قد وجَّهت تفكيرهم، وشرَّدت أذهانهم، وسحرت ألبابهم، وفتنت عقولهم.

هذا كلُّه على حساب العلم الَّذي ينفع، والعمل الصَّالح الَّذي يرفع، وهكذا النَّاس: ﴿يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [سُورَةُ التَّوۡبَةِ].

لسنا ندَّعي العصمةَ فيما نأتيه، وليس من مذهبنا

التَّفرُّد بالرَّأي؛ لأنَّ ذلك نقص في العقل، مناقض لكماله، لكنَّنا ننعى تحكيم العقول والأذواق على نصوص الوحيين، فهذا من الزَّيغ المشين، والضَّلال المبين، واتِّباع لغير سبيل المؤمنين.

وبحكم أنَّنا سلفيُّون أثريُّون؛ فمنهجنا يستوجب التَّسليم المطلق للوحيين، وتقديمهما على أفكار المفكِّرين، وتحليل المحلِّلين، ومداخلات المتدخِّلين في مختلف الميادين، ممَّا نقرأه في الصُّحف يوميًّا، أو يبلغنا عن بعض القنوات الفضائيَّة من المتتبِّعين.

إنَّنا لا نؤمن بالنَّشاط الموسمي، والحماسة الهاجمة المتأثِّرة بحديث أو حَدَث؛ لأنَّنا نرى أنَّه لا ينبغي للدَّاعية السَّلفي أن يكون نشاطُه موسميًّا ظرفيًّا، ثمَّ هو لا يتحرَّك إلاَّ إذا حُرِّك، ولا ينشط إلاَّ إذا نُشِّط، نظرتُه في العطاء للدَّعوة والعمل لها والتَّفاني من أجلها قاصرةٌ ضيِّقة!

ينبغي أن يكون توجُّه السَّلفي الدَّاعي إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ حينما يسمع كلمةَ «**حقٍّ**»؛ إلى حقِّ غيره عليه، لا حقُّه هو على غيره، فيستحضر قائمةَ الواجبات المنوطة بعنقه بصفته حاملاً لأمانة التَّبليغ، ومسؤوليَّة بيان الحقِّ للخلق، في صدقِ لَهْجة، وقوَّةِ حجَّة، متجرِّدًا عن حظوظ الدُّنيا، ونزعات الهوى، غير مساير لعواطف النَّفس الَّتي تمنع الحكم بشرعٍ وموضوعيَّة، ومعالجة القضايا بمنهج علميٍّ وعقلانيَّة.

إنَّنا نعتقد السُّؤدد في العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وأن سبيل العزِّ واحد لا يتعدَّد، وهو في العودة إلى الدِّين القويم، والصِّراط المستقيم، بزاد التَّقوى، وحصانة التَّوحيد والإيمان والسُّنَّة، وعدَّة الصِّدق والصَّبر واليقين، واقتفاء هدي نبيِّنا محمَّد ﷺ سيِّد الأوَّلين والآخرين، والسَّير على نهج أصحابه والتَّابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين.

وأخيرًا نقول: إنَّ في نيَّة الإدارة أن تجمع هذه المجلَّة بأعدادها في مجلَّدات لمن فاته جمعها أو قراءتها، وذلك حفاظًا لها وتسهيلاً للوصول إليها.

وأمَّا الجهد المبذول من جهة الطِّباعة والإخراج الفنِّي، فهي لا تحسب أنَّها بلغت ما تريد، وإنَّها لترجو أحسن من ذلك، وتسعى جاهدة في سبيل تحقيق الأفضل والأكمل.

والله نسأل التَّوفيق والسَّداد في القول والعمل.



شهر الله المحرم.. سنن ومحدثات

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على مَن أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإنَّ من شَرَف الشَّهر الأوَّل من شهور السَّنَة القمريَّة أَنْ نسبه النَّبيُّ أ إلى ربِّه، ونَعَتَهُ بذلك في قوله أ : «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ المُحَرَّمُ**»[1].

والمعلوم أنَّه لا يضيفُ اللهُ إليه إلاَّ خواصَّ مخلوقاته على سبيل التَّشريف والتَّفضيل.

■ قال السُّيوطي : : «سُئلت: لِمَ خُصَّ المحرَّمُ بقولهم: شهر الله ـ تبارك وتعالى ـ دونَ سائر الشُّهور، مع أنَّ فيها ما يساويه في الفضل أو يزيد عليه كرمضان؟ ووجدت ما يجاب به: بأنَّ هذا الاسم إسلاميٌّ دون سائر الشُّهور، فإن أسماءها كلّها على ما كانت عليه في الجاهليَّة، وكان اسم «المحرَّم» في الجاهليَّة: «صفرَ الأوَّل»، والَّذي بعده «صفر الثَّاني»، فلمَّا جاء الإسلام سمَّاه الله y «المحرَّم»، فأضيف إلى الله y بهذا الاعتبار، وهذه فائدةٌ لطيفةٌ رأيتها في «الجمهرة»»[2].

«ويُكره أن يُسمَّى «المحرَّم» صفرًا؛ لأنَّ ذلك من عادة الجاهليَّة» كما ذكر النَّووي[3]، ولعلَّ من عادتهم أنَّهم يطلقون على المحرَّم وصفر لفظ «الصَّفرين» من باب التَّغليب، لا لكون المحرَّم اسمًا جديدًا حادثًا.

■ قال الشَّيخ بكر أبو زيد : : «إنَّ اسم «شهر المحرَّم» كان في الجاهليَّة يُسمَّى «صفر الأوَّل» وأنَّ تسميتَه محرَّمًا من اصطلاح الإسلام، وقد ذهب إلى هذا بعض أئمَّة اللُّغة، وأحسب أنَّه اشتباه؛ لأنَّ تغيير الأسماء في الأمور العامَّة يدخل على النَّاس تلبيسًا لا يقصده الشَّارع، ألا ترى أنَّ رسول الله أ لمَّا خطب حَجَّة الوداع، فقال: «**أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟** قال الرَّاوي: فَسَكَتْنَا حتَّى ظننَّا أنَّه سيُسمِّيه بغير اسمه، فقال: «**أَلَيْسَ بذي الحجَّة؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هذا...**»[4]، ثمَّ ذكر أثناء الخطبة الأشهر الحُرُم فقال: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، ورجب مضر الَّذي بين جمادى وشعبان، فلو كان اسم المحرَّم اسمًا جديدًا لوضَّحه للحاضرين الواردين من الآفاق القاصية، على أنَّ حادثًا مثل هذا لو حدث لتناقله النَّاس، وإنَّما كانوا يطلقون عليه وصَفَر لفظ «الصَّفرين» تغليبًا»[5] بتصرُّف.

■ ■ ■

(1) أخرجه مسلم (1163)، وأبو داود (2431)، والترمذي (438)، وأحمد في «مسنده» (344/2)، من حديث أبي هريرة Ç .

(2) «الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للسيوطي (251/3).

(3) «الأذكار» للنووي (364).

(4) أخرجه البخاري (67)، ومسلم (1679)، من حديث أبي بكرة واسمه: نفيع بن الحارث Ç .

(5) «معجم المناهي اللفظية» لبكر بن عبد الله أبو زيد (343 ـ 344).



هذا؛ وليس في أوَّل يوم شهر الله المحرَّم نصٌّ شرعيٌّ صحيحٌ يُثبت تخصيصه بالذِّكر والدُّعاء والعمرة والصِّيام بنيَّة افتتاح السَّنة الهجرية بالصِّيام، ولا اختتامها بالصِّيام عند نهاية السَّنة بِنِيَّةِ توديع العام الهجري.

فما ورد من أحاديث في هذا الشَّأن فموضوعة ومختلقة على النَّبيِّ أ [6]، كما لم يثبت في الشَّرع إحياءُ ليلةِ أوَّلِ يومِ المحرَّم بالصَّلاة والذِّكر والدُّعاء ونحو ذلك.

■ قال أبو شامة : : «ولم يأت شيءٌ في أوَّل ليلة المحرَّم، وقد فتَّشت فيما نقل من الآثار صحيحًا وضعيفًا، وفي الأحاديث الموضوعة فلم أر أحدًا ذكر فيها شيئًا، وإنِّي لأتخوَّف - والعياذ بالله - من مُفترٍ يختلق فيها» [7].

◪ ◪ ◪

وفي شهر الله المحرَّم يومٌ جليل القدر هو يوم عاشوراء المبارك، وحُرمته قديمة، إذ فيه نَجَّى الله تعالى موسى o وبني إسرائيل من ظلم فرعون وجنوده، وأغرقه الله وقومه.

فقد ورد في «الصحيحين» من حديث ابن عباس È : «أن رسول الله أ قدم المدينة فوجد اليهود صيامًا يومَ عاشوراء، فقال لهم رسول الله أ : «**مَا هَذَا اليَوْمُ الَّذي تَصُومُونَهُ؟**»، فقالوا: «هذا يوم عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومَه، وغرَّق فرعونَ وقومَه، فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه»، فقال رسول الله

(6) فمن ذلك حديث موضوع: «من صام آخرَ يوم من ذي الحجة وأول يومٍ من المحرَّم، ختم السنة الماضية وافتتح السنَّة المقبلة بصوم، جعل الله له كفارة خمسين سنة». [انظر: «اللآلي المصنوعة» للسيوطي: (108/2)، «تنزيه الشريعة» للكناني (148/2)، «الفوائد المجموعة» للشوكاني (96)].

(7) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» لأبي شامة (239).

أ : «**فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ**»، فصامه رسول الله أ وأمر بصيامه» [8].

● ومن فضائله أنَّ صيامه يُكفِّر السَّنة الماضية، لقوله أ : «**أَحْتَسِبُ على الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» [9].

● ويُستحبُّ أن يُصام معه التَّاسع؛ لأنَّ هذا آخرُ أمره أ حيث قال: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**» [10]، مخالفةً لليهود الَّذين كانوا يُفرِدونه بالصَّوم.

● ومن أحكامه نسخ وجوب صيام عاشوراء إلى الاستحباب بحديث ابن عمر È قال: «**صَامَ النَّبِيُّ** أ **عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِه فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تُرِكَ**» [11]، وفي حديث عائشة á : «..**فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ**» [12].

■ قال الحافظ ابن حجر : : «مع العلم بأنَّه ما تُرِكَ استحبابه، بل هو باقٍ، فدلَّ على أن المتروك وجوبه.. بل تأكُّدُ استحبابِه باقٍ ولا سيَّما مع استمرار الاهتمام به حتَّى في عام وفاته أ حيث يقول: «**لَئِنْ عِشْتُ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ وَالعَاشِرَ**»، ولترغيبه في صومه، وأنَّه يكفِّر سَنَةً، وأيُّ تأكيد أبلغ من هذا؟» [13].

◪ ◪ ◪

(8) أخرجه البخاري (3397)، ومسلم (1130)، من حديث ابن عباس È .

(9) أخرجه مسلم (1162)، وأبو داود (2425)، وأحمد في «مسنده» (297/5)، من حديث أبي قتادة الأنصاري Ç .

(10) أخرجه مسلم (1134)، وأحمد في «مسنده»: (236/1)، من حديث ابن عباس È .

(11) أخرجه البخاري (1892)، وأحمد في «مسنده»: (4/2)، من حديث ابن عمر È .

(12) أخرجه البخاري (2002)، ومسلم (1125)، من حديث عائشة È .

(13) «فتح الباري» لابن حجر (247/4).



لذلك لا يصحُّ اعتقاد وجوب صيام يوم عاشوراء، ولا اعتقاد وجوب أو استحباب قضائه لمن فاته صيامه، ولا تخصيص صوم التَّاسع فقط دون العاشر.

كما لم يرد عن النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ﭫ في هذا اليوم إلاَّ صيامه، إذ ليس في يوم عاشوراء شيءٌ من شعائر الأعياد، ولا من شعائر الأحزان، ولا التَّوسعة على العيال، ولا ضرب الصُّدور ونتف الشُّعور، ولا شقُّ الجيوب وإراقة الدِّماء، فكلُّ ذلك مخالف للسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة.

قال الشَّيخ بكر أبو زيد ؒ: «والمعتمد عند أهل الإسلام أنَّه لا يصحُّ في يوم عاشوراء حديث، لا فيه ولا في ليلته، وكلُّ حديث يروى في ذلك وفي التَّوسعة على العيال يوم عاشوراء فهو موضوعٌ لا يصحُّ، ولا يثبت فيه سوى صيامه ويومًا قبله؛ لأنَّه يومٌ أنجَى اللّه ﻷ فيه نبيَّه موسى ؐ»[14].

قلت: وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[15]، وقال ﷺ: «..**وإيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَة بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَة ضَلالَةٌ**»[16].

ومن المؤسف ـ حقًّا ـ أن لا يلتزم المسلمون باتِّباع المشروع ويبادرون إلى اتِّخاذ أوَّل شهر اللّه المحرَّم عيدًا متعلِّقًا بدخول السَّنة الهجريَّة على غرار السَّنَة الميلاديَّة، ويجعلون من ذلك وسيلة للاحتفال بالتَّاريخ السَّنوي وإحيائه ـ تعظيمًا له ـ بالذِّكر والذِّكريات، والخُطب والدُّروس والمحاضرات، والشِّعر والأمسيات، فنيَّة وموسيقيَّة وثقافيَّة، وتبادل الأماني والتَّهاني، وغير ذلك ممَّا أحدثه النَّاس فيه مع ظهور بصمات التَّشبُّه بأهل الكتاب.

ومن زاوية أخرى، فإنَّ الوقائع الجليلة والأحداث الشَّريفة الَّتي جمعتها سيرة النَّبيِّ ﷺ العطرة، كبعثته ﷺ إلى النَّاس بشيرًا ونذيرًا، ونزول الوحي عليه، ومعجزة القرآن الكريم وسائر معجزاته، وليلة الإسراء والمعراج، وهجرته من مكَّة إلى المدينة، وحصول المعارك والغزوات، وإقامة دولة الإسلام، وعلوِّ راية الجهاد في سبيل اللّه، وانتشار الدَّعوة إلى اللّه في الآفاق وغيرها من الحوادث العظيمة الواقعة في زمانه ﷺ لا تضفي الصِّبغة الشَّرعيَّة على الاحتفال بذكرى الهجرة النَّبويَّة في الأوَّل من شهر اللّه المحرَّم من كلِّ عام جديد على أنَّه عيد وعطلة للمسلمين بالاعتياد والتّكرار.

ذلك لأنَّ المعلوم ـ شرعًا ـ أنَّ الأعياد والمواسم الدِّينيَّة معدودة من مسائل العبادة، والعبادات ـ من حيث حكمُها ـ توقيفيَّةٌ تحتاج إلى دليل يشرعها كما هو مقرَّر في القواعد الشَّرعيَّة، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢١﴾ [الشورى]، ولقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[17].

ولا يشفع للاحتفال بأوَّل شهر المحرَّم أصل من كتاب اللّه ولا سنَّة رسوله ﷺ، ولم يُؤثَر ذلك عن صحابته الكرام، ولا عن التَّابعين لهم بإحسان.

(14) «تصحيح الدعاء» لبكر أبو زيد (109).

(15) متفق عليه: أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718)، من حديث عائشة ڤ.

(16) أخرجه أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وأحمد في «مسنده» (4/126)، من حديث العرباض بن سارية ، ؓ والحديث صححه ابن الملقن في «البدر المنير» (9/582)، وابن حجر في «موافقة الخُبْر الخَبَر» (1/136)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (2735)، وحسَّنه الوادعي في «الصحيح المسند» (938).

(17) أخرجه مسلم (1718)، من حديث عائشة ڤ.

ولا مجال لإدخال الأعياد والاحتفالات بمثل هذه المناسبات في باب شكر الله تعالى أو تعظيم نبيِّه ﷺ؛ لأنَّ شكر الله ليس بالاشتراك معه في التَّشريع والحكم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26].

وإنَّما شكر الله بطاعته وعبادته على وَفق شرعه وتعظيم النَّبيِّ ﷺ في اتِّباع سُنَّته، وطاعته فيما أمر به وزجر عنه، والتَّسليم لأحكامه والتَّأسِّي به في مظهره ومخبره، وعدم الابتداع في الدِّين.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

■ قال ابن كثير ؒ: «هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كُلِّ من ادعى محبةَ الله وليس هو على الطَّريقة المحمَّديَّة؛ فإنَّه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمديَّ والدِّين النَّبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ**»،... وقال الحسن البصري وغيره من السَّلف: زعم قومٌ أنَّهم يحبُّون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾»[18].

◪ ثمَّ إنَّه ـ من زاوية ثالثة ـ: لا يخفى أنَّ الأوَّل من شهر الله المحرَّم هو بداية التَّقويم السَّنوي الإسلامي من التَّاريخ الهجري، كذا أرَّخه الصَّحابة الكرام ﷺ بالإجماع في الدَّولة العمريَّة[19] مخالفين في ذلك بداية التَّقويم السَّنوي عند النَّصارى حيث أرَّخوه من يوم ولادة المسيح عيسى ؑ، ومع ذلك لم تكن هجرة النَّبيِّ ﷺ في شهر المحرَّم وإنَّما بدأت هجرته من مكَّة إلى المدينة في أوائل شهر ربيع الأوَّل من السَّنة الثَّالثة عشرة لبعثته ﷺ ووصل إلى قُباء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين كما صرَّح به أهل الحديث والسِّيرة[20].

ومنه يتبيَّن أنَّ شهر المحرَّم لم يكن موعدَ هجرته ﷺ وإنَّما كان ابتداء العزم على الهجرة في ذلك الشَّهر على أقوى الأقوال، كما صرَّح بذلك الحافظ ابن حجر ؒ بقوله:

«وإنَّما أخرُّوه من ربيع الأوَّل إلى المحرم؛ لأنَّ ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرَّم، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجَّة وهي مقدِّمة الهجرة فكان أوَّل هلال استهلَّ بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرَّم فناسب أن يجعل مبتدأ، وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم»[21].

◪ ومن زاوية رابعة: فإنَّ من الحقِّ والعدل أن يقتدي المسلمون بالرَّسول ﷺ ويَتَّعِظُوا بسيرته، وينتفعوا بما جرى في زمانه من وقائع عظيمة وحوادث شريفة، ويستخرجوا منها الدُّروس والعبر على مدار السَّنة، تتجسَّد معانيها الرُّوحيَّة في قوالب صادقة تقوِّم سيرة المسلم وسلوكه وخلقه باستنارته من مشكاة النُّبوَّة، لا أن تحصر سيرته ﷺ والانتفاع بأحداثها في الاحتفالات والخطب في أيَّام محدَّدة الوقت في السَّنة تمرُّ مجرَّد ذكريات، وتتكرَّر كلَّ عام على وجه الاعتياد، وسرعان ما تدخل في طَيِّ النسيانً مع مرور تلك الأيَّام من غير ملاحظة الأثر الإيماني والخُلُقي على سلوك المسلمين وسيرتهم، بل بالعكس ترى الكثير يتدافعون للانتقال من بلاد الإسلام إلى بلاد الكفر طلبًا لمساكنة أهل

(18) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (1/358).

(19) «البداية والنهاية» لابن كثير (3/177).

(20) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (3/177، 190)، «فصول في سيرة الرسول» لابن كثير (80)، «مختصر سيرة الرسول» لمحمد ابن عبد الوهاب (2/166).

(21) «فتح الباري» لابن حجر (7/268).

الكفر والاسترزاق على وَفقهم والعيش في ديارهم بحريَّة بهيميَّة، ومشاكلتهم في عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم وأنماط حياتهم، فأين يا ترى الأثر الإيماني والعملي لذكرى هجرة الرَّسول ﷺ الَّذي هاجر من بلاد الشِّرك إلى بلاد الإيمان والإسلام؟!!

إنَّ اهتمام السَّلف الصَّالح والتَّابعين لهم بإحسان بسيرة النبي المصطفى ﷺ العطرة وحوادثها العظيمة إنَّما كان بدراستها واستخراج الدُّروس والعبر منها، ويتجلَّى الانتفاع والاتِّعاظ بها طوال أيَّام السَّنة ولياليها، وتتجسَّد معانيها العالية ـ تكريسًا ـ في سلوكهم وسيرتهم اقتداءً به ﷺ في قيمه، والسَّير على منواله، والتَّأسِّي به في دعوته إلى توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرَّسول، وفعل ما أمر الشَّرع به وترك ما نهى عنه عملاً بقوله ﷺ: «..والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى الله عَنْهُ»[22]، وفي حديث آخر: «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَات»[23]، مع موافقة الشَّرع فيما يحبُّه ويرضاه، وفيما يسخطه ويكرهه ويبغضه ولا يرضاه من الأقوال والأفعال والاعتقادات والذَّوات كما هو معلومٌ من عقيدة الولاء والبراء، وهي من لوازم الشَّهادتين وشرط من شروطها، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: 28]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ [المجادلة: 22]، وغيرها من الآيات.

تلك هي الهجرة الباطنيَّة القلبيَّة الَّتي تلازم المسلم في حياته ولا تنفكُّ عنه، وتليها ـ عملاً ـ هجرة بدنيَّة ظاهرة محتوية للهجرة القلبيَّة، وهي هجرة المسلم من بلاد الشِّرك إلى بلاد الإسلام وجوبًا على غير القادر على إظهار شعائر الإسلام في بلاد الكفر ولا الولاء والبراء، ولا هو من المستضعفين الَّذين لا تسعهم الهجرة أو كان ممَّن تحُول دون هجرته الظُّروف السِّياسيَّة والجغرافيَّة.

فهما هجرتان إلى الله ورسوله، لقوله ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُوله فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُوله»[24]..

■ قال ابن القيم ؒ في الهجرة: إنَّها «هجرتان:

ـ هجرة إلى الله بالطَّلب والمحبَّة والعبوديَّة والتَّوكُّل والإنابة والتَّسليم والتَّفويض والخوف والرَّجاء والإقبال عليه وصدق اللّجأ والافتقار في كلِّ نَفَس إليه.

ـ وهجرة إلى رسوله ﷺ في حركاته وسكناته الظَّاهرة والباطنة بحيث تكون موافقةً لشرعه الَّذي هو تفصيل محابِّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه»[25].

◪ ◪ ◪

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصَلَّى الله على محمَّد، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

---

(22) أخرجه البخاري (10)، من حديث عبد الله بن عمرو ﭭ.

(23) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (196)، وعبد بن حميد في «مسنده» (338)، والعدَني في «الإيمان» (26)، وابن منده في «الإيمان» (318)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (545)، من حديث عبد الله بن عمرو ﭭ، وصحّحه الألباني في تحقيق كتاب «الإيمان» لابن تيمية (3).

(24) أخرجه البخاري (54)، ومسلم (1907)، من حديث عمر ابن الخطاب ﭬ.

(25) «طريق الهجرتين» لابن القيم (20).



آيات من التنزيل

في التنويه بفضائل الخليل صلى الله عليه وسلم

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

الحمد لله الَّذي أنزل على عبده الكتاب تبصرةً لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلوم والحكم العجب العجاب، وجعله أجلَّ الكتب قدرًا، وأغزرها علما، وأعذبها نظمًا، وأبلغها في الخطاب، قرآنًا عربيًّا، غير ذي عوَج، ولا مخلوق، لا شبهة فيه ولا ارتياب.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، ربُّ الأرباب الَّذي عَنَتْ لقيُّوميَّته الوجوه، وخضعت لعظمته الرِّقاب.

وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّدًا عبده ورسوله، المبعوث من أكرم الشُّعوب، وأشرف الشِّعاب، إلى خير أمَّة، بأفضل كتاب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأنجاب، صلاةً وسلامًا دائمين إلى يوم المآب[1]، وبعد:

فيقول الله y في محكم التنزيل المبارك:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]

(1) من مقدمة السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (2/164).

هذه الآيات الثلاث من أواخر سورة النحل، وتدعى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من النعم والمنن الظاهرة والباطنة، الدينية منها والدنيوية، ولا شكَّ أنَّ أجلَّ النِّعم وأعظمَها نعمةُ الإيمان والعمل الصالح، التي يحيا بها المرء الحياة الطيبة الهنية، وتلك حسنة الدنيا، ثم يحيا بعدها حياة النعيم الأبدية، وتلك حسنة الآخرة وأنعم بها من حسنة.

وفي هذه الآيات أخبر سبحانه «أنه أتى خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك أجر توفية»[2] لأن الأجر التام الوافي هو في الآخرة، «وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرا أجرين[3] عمله في الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ] وفي الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، وقال في هذه السورة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

(2) «إعلام الموقعين» (2/164).

(3) ضبطت في الأصل هكذا أجرين [طبعة محيي الدين عبد الحميد وطبعة حسن مشهور]، ولعل الصحيح: أجر، بدل أجرين، كما أشار إلى ذلك علي الصالحي في «التفسير المنير» (4/81).



﴿٩٧﴾ [سورة النحل]، وقال فيها عن خليله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة النحل]، فقد تكرَّر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه مما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعما أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية»[4].

وقد بين سبحانه في هذه الآيات أسباب نيل هذه الكرامة في الأولى، وإدراك تلك الرحمة في الأخرى، وأخبر أنها مقامات علية، وصفات سنية، لا يبلغ قدرها إلاَّ أفراد الرجال، ولا يقوم بها عن أهلية واقتدار إلا من طمح في الكمال، ممن اصطفى الله من الأخيار، وزكَّى من عباده الأبرار، وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل كإبراهيم o الذي قال فيه ربه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة هود]، وقال عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [سورة مريم]، وأمر بالتأسي به والاقتداء بهديه في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: 4]، وأوجب اتباع ملَّته؛ لأنها خير الملل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل]، وذكر أن أولى الخلق باتباع نهجه من اصطفاه الله على العالمين وجعل أمته أكرم الأمم: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة آل عمران]، وحكم على من رغب عن ملته وزاغ عنها بالسفاهة والطيش: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة البقرة]، إلى غير ذلك من أنواع الثناء الذي خصه الله به.

وقد مدح الله خليله وأثنى عليه في هذه الآيات «بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه»[5].

فمن كان حظه من هذه الصفات أوفر فهو جدير بأن يُتَّبعَ ويقتدى به، ويقلده الناس ذممهم، ويأمنونه على دينهم، وأما إذا كان عديما منها أو مخلا ببعضها فلا يستحق أن يكون متبوعا ولا إماما؛ لأن الله عزله عن الإمامة ولا يرضاه للناس قائدا ودليلا.

* وأولى هذه الصفات التي هي من أرفع أنواع المدح والثناء للخليل إبراهيم o :

◘ كونه أمة وحده:

ولفظ الأمة في القرآن يأتي على تسعة أوجه هي: (عصبة، ملة، سنين، قوم، إمام، الأمم الخالية، أمة محمد أ ، الكفار، الخلق)[6].

• ومعنى الأمة في هذه الآية يدور على وجهين:

الأول: كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا[7]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ معناه أنه قائم مقام جماعة في عبادة الله وطاعته، وهذا كقولهم: فلان في نفسه قبيلة، فإبراهيم «كان أمة من الأمم، اجتمع فيه ما تفرق في الأمم من صفات الخير ونعوت البركة، كما قيل:

وليس لله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد[8]

قال مجاهد: «كان مؤمنا وحده والناس كفار

---

(4) «إعلام الموقعين» (2/164).

(5) «مفتاح دار السعادة» (1/316).

(6) تنظر بأوجهها وأدلتها من القرآن في كتاب «الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها» لأبي عبد الله الدامغاني (ت478هـ) (ص109).

(7) انظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني.

(8) أفاده الرسعني في تفسيره «رموز الكنوز» (4/104).



كلهم»[9].

الثاني: أن يكون أمة بمعنى مأمومًا، أي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتمًّا به، فهو على هذا كقول الله له: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، ووصفه بالأمة أبلغ من وصفه بالإمام وأتم وأكمل لأن الفرق بينهما من وجهين، كما قال ابن القيم : في «مفتاح دار السعادة» (1/315):

«أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾ [سورة الحجر]، أي بطريق واضح لا يخفى على السالك، ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فردا وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره» اهـ.

ولذلك قال النبي ﷺ في زيد بن عمرو والد سعيد ابن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة لما سئل عنه: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**»[10]؛ لأنه كان ممن طلب التوحيد وخلع الأوثان وجانب الشرك، وقد مات قبل مبعث النبي ﷺ، وكان لا يأكل من ذبائح قريش، والسر في كونه يحشر أمة وحده هو أنه أقام التوحيد ونبذ الشرك وحارب أهله في وقت غاب فيه القائم بالحق وقل النصير وكانت الجولة فيه للباطل.

ومثله في الإمامة العالم الرباني المتفرغ لتعليم الناس وهدايتهم كمعاذ بن جبل ؓ الذي قال فيه النبي ﷺ: «**معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه**»[11]، فقد أخرج عبد الرزاق في «تفسيره»[12] بسنده إلى مسروق قال: قرأت عند ابن مسعود ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ فقال: إن معاذا كان أمة قانتا لله، قال: فأعادوا عليه، قال: فأعاد عليهم، ثم قال: أتدرون ما الأمة؟ الذي يعلم الناس الخير، والقانت الذي يطيع الله ورسوله»[13].

وقد صدق عبد الله بن مسعود ؓ فبالعلم والعمل بموجبه تنال الإمامة في الدين، وبهما يصير الواحد كالألف كما قيل:

والناس ألف منهم كواحد
وواحد كالألف إن أَمرٌ عَنَا

○○○

◘ وثاني الصفات التي أثنى الله بها على خليله قوله: ﴿قَانِتًا﴾.

والقانت: المطيع لله ورسوله على ما تقدم تفسيره عن عبد الله بن مسعود ؓ، وأصل القنوت: لزوم الطاعة والخضوع، وفسر بكل منهما قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [سورة البقرة]، وقيل القنوت: القيام، وبه فسر قوله ﷺ لما سئل: «أي الصلاة أفضل؟» قال: «**طول القنوت**»[14]، لكن ليس مطلق القيام، بل القيام مع الخضوع، فيكون معنى القانت هنا: القائم بما أمر الله به، من طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

○○○

(9) ابن أبي حاتم في «تفسيره» (7/2306)، والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم (5/176).
(10) النسائي في «الكبرى» (5/54)، وأبو يعلى في «مسنده» (13/137).
(11) أبو نعيم في «الحلية» (1/228)، وهو في «الصَّحيحة» (1436).
(12) برقم (1469).
(13) وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (2/390)، وصححه وأقره الذهبي.
(14) «صحيح مسلم» (1805).

▪ وثالث الصفات صفة عظيمة وهي قوله: ﴿ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾:

والحنيف المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه، والحنَف: هو الميل عن الضلال إلى الاستقامة، وتحنَّف الرجل: إذا تحرى طريق الاستقامة، وكانت العرب تسمي كل من اختتن أو حج: حنيفا تنبيها على أنه على دين إبراهيم o ، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: 31]؛ أي حجاجًا، وإبراهيم o قامت دعوته على التوحيد واستمرت عليه وانتهت إليه فلذلك استحق اسم الحنيف، فهو مقبل على الله معرض عما سواه في حاله ومآله وقاله.

ولما زعمت قريش أنها على دين إبراهيم o أكذبهم النبي أ لأنهم كانوا يشركون بالله ولا يدينون دين الحق، ففي البخاري عن ابن عباس È أن النبي أ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بأيديهما الأزلام، فقال: «**قاتلهم الله! والله إن استقسما بالأزلام قط**»(15).

وتحتمل لفظة الحنيف الرد أيضا على اليهود والنصارى في دعوى كل طائفة منهم أن إبراهيم كان منهم كما في قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران]؛ لأن كلا من ملة اليهود والنصارى مشتملة على الشرك كما أخبر الله سبحانه عنهم.

ooo

▪ ورابع الصفات المذكورة في حق إبراهيم o قوله تعالى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾:

والشُّكر: الاعتراف بالنعمة وإظهارها، ويكون بالقلب وهو الاعتراف بالنعمة، ويكون باللسان وهو الثناء على صاحب النعمة ومسديها ويكون بسائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بالطاعات ومنه قوله تعالى في نوح o : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الإسراء]، وقوله أ : «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(16)، وهذا حينما كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه.

وعلى هذا فإن الشكر مظهر من مظاهر عبادة الله التي دعا إليها بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة البقرة]، فهو باب الخير ومفتاح السعادة، وسبيل النماء وسبب الزيادة، قيد الله به النعم ودفع به النقم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ فما استحفظت نعم الله ولا استجلبت بمثل الشكر، ولا ضيعت ولا استدفعت بمثل الكفر؛ لذلك قيل: «من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة»(17).

وملازمة العبد للشكر ملازمة للإيمان؛ لأن الإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر، وكذلك كان إبراهيم o صابرًا على المحن والابتلاء، وشاكرًا للمنن والعطاء، فهو كما قيل فيه بحق: «قلبه للرَّحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضِّيفان»(18).

ooo

والمقصود أن الصفات الأربع التي وصف الله بها خليله إبراهيم o صفات يحصل بها الاجتباء وتتم بها الهداية وتحصل بها السعادة، ولذلك قال:

(15) «صحيح البخاري» (3352).

(16) رواه البخاري (1130) ومسلم (2819).

(17) ذكره ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص11).

(18) ذكره ابن القيم في «جلاء الأفهام» (274/1).



﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ أي: اصطفاه وخصَّه بأنواع النعم من النبوة والرسالة والخلة والصلاة عليه والبركة في الأموال والأولاد وتنويه الله بذكره حتى إنَّ أهل الأديان جميعهم كان فخرهم بالانتماء إليه صلوات الله وسلامه عليه.

وقال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي إلى ملَّة الإسلام، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، قيل: هي الخلة التي اصطفاه الله بها وهي لنبينا ﷺ أيضا، وقيل: البركة في الأموال والأولاد ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من أهل الجنَّة.

وبمثل هذه الخلال وتحقيقها في النفس يكون السؤدد والشرف وتنال الإمامة في الدين ويصلح شأن العباد والبلاد في الحال والمآل.

♦♦♦

والله نسأل أن يعيننا على تحقيق هذه الخلال لتستقيم النفوس وتصلح الأحوال إنه ولي ذلك والقادر عليه.

▪ قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«إنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو أبونا الثَّالث، وهو إمام الحنفاء، ويسمِّيه أهل الكتاب: عمود العالم، وجميع أهل الملل متَّفقة على تعظيمه وتولِّيه ومحبَّته، وكان خير بنيه سيِّد ولد آدم محمَّد ﷺ يجلُّه ويعظِّمه ويبجِّله ويحترمه».

[«جلاء الأفهام» (ص 269)]

▪ وقال ـ رحمه الله ـ:

«ومناقب هذا الإمام الأعظم والنَّبيِّ الأكرم أجلُّ من أن يحيط بها كتابٌ، وإن مدَّ الله في العمر أفردنا كتابًا في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقلَّ، جعلنا الله ممَّن ائتمَّ به، ولا جعلنا ممَّن عَدَلَ عن ملَّته بمنِّه وكرمه».

[«جلاء الأفهام» (ص276)]



من الهدي النبوي:

وكلّكم مسؤول عن رعيّته

د/صالح عومار

أستاذ الحديث بجامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهُداه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإنَّ منْ نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده أَنْ بعث فيهم رُسلاً مبشِّرين ومنذرين، هداةً مصلحين، داعين الخلقَ إلى ما يُصلحهم في معاشهم، ويسعدهم في معادهم... وأتمَّ نعمته على العباد بالشَّريعة المحمَّديَّة الغرَّاء، القائمة على تحقيق المصالح للنَّاس، ودفع المضارِّ والمفاسد عنهم؛ ففيها صلاح الفرد، وصلاح الأسرة، وصلاح المجتمع، بل وسعادة النَّاس أجمعين...

وتنبيهًا على هذا المعنى، فقد استفاض عن النَّبيِّ أ في دعوته وتعليمه؛ أنَّه كان يفتتح خطبه ومواعظه ودروسه بقوله: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإنَّ خَيْرَ الحَديث كتَابُ الله، وَخَيْرَ الهُدَى هُدَى محمَّد أ ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها...**»[1].

وهو تأصيلٌ قويم، وتأكيد بليغ لأمَّته ولأتباعه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أنَّ خير طريق للإصلاح، وأحسن هدي لسعادة الدَّارين، إنَّما هو في اتِّباع سنَّته أ ، والاهتداء بهديه الَّذي بُعث به، وذلك بيان لقول الحكيم العليم: ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾ [النور: 54]

وعندها نقول: إنَّ السَّعادة والهداية الَّتي يَنْشُدها كلٌّ منَّا، وكل محبٍّ لهذا الدِّين، ناصح لأمَّة الإسلام، إنَّما هي في اتِّباع هدي النَّبيِّ المصطفى أ ، فهو الهدي الكامل التَّام، الشَّامل لكلِّ ما يصلح النَّاس، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...

وفي هذا السِّياق؛ أي إصلاح الفرد، والإصلاح الأسري، والاجتماعي، والسِّياسي... تُتْحفُنا السُّنَّة النَّبويَّة بهدايات عظيمة، وتوجيهات نبويَّة حكيمة، فوائدها عميمة، لمن ألقى السَّمع وهو شهيد:

روى الشيخان ـ البخاري ومسلم ـ:

من طرق؛ عن سالم بن عبد الله، وعبد الله ابن دينار، ونافع مولى ابن عمر، ثلاثتهم عن عبد الله ابن عمر È قال:

سمعت رسول الله أ يقول:

«**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعيَّته؛ فالإمَامُ. وفي رواية: فالأَميرُ الَّذي عَلَى النَّاس، رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعيَّته، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْل بَيْته وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعيَّته، والمَرأةُ رَاعيَةٌ في بيت زوجها. ووَلَده. وَمَسْؤُولة عن رعيتها، والخَادمُ راعٍ في مال سيِّده ومسؤول عن رعيته. قال: وحَسبْتُ أن قد قال: . والرجل راعٍ في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، ألا فَكُلّكُم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته**»[2].

(1) رواه مسلم (867)، وهو طرف من خطبة الحاجة الَّتي كان أ يفتتح بها خطبه ومواعظه... وللعلاَّمة الألباني : جزءٌ مفرد في تتبُّع طرقها وألفاظها، وهو مطبوع متداول.

(2) البخاري (893، 2409، 2554، 2558، 2751، 5188، 5200، 7138)، ومسلم (1829)، وأبو داود (2928)، والترمذي (1705)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».



فهذا خطاب بليغ، وتشريع عامٌّ وشامل لعموم الأمَّة على اختلاف أفرادها، وتنوُّع مواقعهم ومسؤوليَّاتهم، ولم يَبْقَ مكلَّفٌ من ذكر أو أنثى، رفيع أو وضيع، فقير أو غنيٍّ... إلاَّ وهو معني بهذا الخطاب، داخل تحت عمومه.

وقد أجمل ﷺ في خطابه وتعليمه أوَّلًا، ثمَّ فصَّل في البيان، وهذا من بليغ بيانه ﷺ، وهو تفصيل في غاية الأهميَّة، يُزيل اللَّبس والتَّوهُّم من أنَّ المقصود هم بعض فئات المسؤولين فقط، فأكَّد هنَا بالتَّمثيل أنَّ كلَّ فرد هو مسؤول، ومؤتَمَنٌ، ومحاسب على من كان تحت مسؤوليَّته وحكمه...

• يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنَّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه؛ حفظ ذلك أو ضيَّعه»(3).

ثمَّ ختم ﷺ خطابه بما بدأ به، وأتى بحرف التَّنبيه «ألا» مكرَّرًا؛ تأكيدًا للمقصود من الحديث، وتثبيتًا له.

■ فقوله ﷺ: «ألا»: حرف تنبيه يدلُّ على أهميَّة ما سيُقال.

■ «كلُّكم» من صيغ العموم الدَّالَّة على شمول الخطاب لكلِّ مكلَّف ومخاطَب.

■ «راعٍ»: «قال العلماء: الرَّاعي هو الحافظ المؤتَمَنُ المُلتزمُ صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه أنَّ كلَّ من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلَّقاته»(4).

■ ثمَّ افتتح ﷺ بيانه وتفصيله بالتَّأصيل لأعظم مسؤوليَّة يتولَّاها النَّاس، ألا وهي الحكم والسُّلطان؛ تنبيهًا منه إلى أنَّه كلَّما عظمت مسؤوليَّة الرَّجل في الدُّنيا وكثرت الرَّعايا تحت يده، كلَّما عظم تكليفه، وكثرت أعباؤه، واشتدَّ حسابه، وطال سؤاله... ذلك أنَّه حقُّ الرَّعيَّة على راعيها، «عليه أن يتفقَّدها ويتعرَّف أحوالها، إذ هو مسؤول عن الجليل والدَّقيق منها، يباشر بنفسه ما استطاع، ويضع الوسائل الَّتي تُطلعه على ما غاب عليه منها، ويُنيط بأهل الخبرة والقدرة والأمانة تفقُّدَ أحوالها.. وهذا التَّفقُّد والتَّعرُّف هو على كلِّ راعٍ في الأمم والجماعات، والأُسَر والرِّفاق، وكلّ من كانت له رعية»(5).

ثمَّ إنَّ الحساب على هذه المسؤوليَّة شاقٌّ وعسير بين يدي الحكيم الخبير، يؤكِّده النَّبيُّ ﷺ في أحاديث عديدة، منها ما رواه الإمام مسلم عن الحسن البصري قال: عاد عُبيِّد الله بن زياد مَعْقِل بن يسار المُزَني في مرضه الَّذي مات فيه، فقال معقل: إنِّي محدِّثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لو علمتُ أنَّ لي حياة ما حدَّثتك، إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ. وفي رواية: ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ. إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»(6).

ألا فليتَّق الله كلّ من تولَّى مسؤوليَّةً على النَّاس. دقَّت أم جلَّت.. وليجتهد في إقامة الأحكام الشَّرعيَّة، وسياسة رعيَّته بكتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، وليحكم بين رعاياه بالحقِّ، وليُقِم سياسته على القسط والعدل.

• يقول النَّوويُّ رحمه الله: «وفي هذه الأحاديث وجوب النَّصيحة على الوالي لرعيَّته، والاجتهاد في مصالحهم، والنَّصيحة لهم في دينهم ودنياهم...»(7)، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**إنَّ الله يأمركم أنْ تُؤدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين النَّاس أن تحكموا بالعدل إنَّ الله نعمًّا يعظكم به إنَّ الله كان سميعًا بصيرًا**﴾ [النساء]...

■ ثمَّ ثَنَّى ﷺ قصْدًا، بأهمِّ مسؤوليَّة بعد الإمامة والسُّلطان، ألا وهي مسؤوليَّة البيت والأسرة ـ الَّتي هي

(3) قال ابن حجر: «رواه ابن عدي بسند صحيح»[«الفتح» (13/141)]، وصحَّحه الألبانيُّ مرفوعًا كما في «الصَّحيحة» (1636).

(4) قاله النَّوويُّ: «شرحه على مسلم» (12/213)، وابن حجر: «فتح الباري» (13/141).

(5) العلاَّمة عبد الحميد بن باديس: «مجالس التَّذكير من كلام الحكيم الخبير» (ص345، 346).

(6) «الجامع الصحيح» (12/ 214) (نووي).

(7) «شرحه على مسلم» (12/ 215).



لَبِنَةُ المجتمع، وركيزة الأمم ـ. فبيَّن أنَّ كل رجل هو مسؤولٌ عن أسرته؛ يجب عليه رعاية أهله وأولاده، ومن تحت كفالته، وسياستهم بما يصلحهم في أمور دينهم ودنياهم، فأهل المرء ونفسه من جملة رعيَّته، وهو مسؤول عنهم، وعليه أن يحرص على وقايتهم من النَّار، وامتثال أوامر الله ونواهيه فيهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الَّذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارًا**﴾ [التحريم: 6]

فالمرء لا يُسأل يوم القيامة عمَّا كُلِّفَ به من الإيمان بالله تعالى وأداء الفرائض والواجبات من صلاة وصيام فحَسْبُ... بل سَيُسأل أيضًا عمَّن هو تحت مسؤوليَّته؛ أحفظ ذلك أم ضيَّعه...

نعم؛ فالرَّجل راعٍ على أهل بيته ومسؤول على إقامتهم على الحقِّ والعدل؛ من أمرهم بالمعروف، ونَهيهم عن المنكر، وتعليمهم ما يقيمون به دينهم الصَّحيح، والإنفاق عليهم بالمعروف، والسَّهَر على تربية أبنائه وإرشادهم إلى ما يصلحهم في دينهم ودنياهم، فهو المسؤول الأوَّل عن تربية أبنائه؛ فلا يُلقِيَنَّ اللاَّئمةَ على معلِّم، أو إمام مسجد، أو أستاذ، أو يُحَمِّل ذلك كلّه لهَيْئَة، أو وزارة، أو مجتمع... لأنَّ ذلك كلّه هو عَيْنُ التَّهرُّب من المسؤوليَّة والفرار من الزَّحف... وفي الحديث الصَّحيح: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»[8]... فالْزَمْ بيتك عبدَ الله، وحُطْ رعيَّتَك بما يُصلحها، وارْعَها بالمعروف؛ تَسْعد في الدُّنيا، وتَلْقَ الله وهو عنك راضٍ.

■ بعد هذا تكلَّم النَّبيُّ ﷺ عن مسؤوليَّة المرأة، وترتيب ذلك في الذِّكر والبيانِ علميٌّ دقيق، فإنَّ أعظم مسؤوليَّة يتولاَّها النَّاس هي الإمامة والسُّلطان وما ينوب عنها، ثمَّ المسؤوليَّة الثَّانية هي تلك الَّتي يتولاَّها الأب في أسرته: ﴿**الرِّجال قوَّامون على النِّساء**﴾ [النساء: 34]. بعدها تأتي مباشرة مسؤوليَّة المرأة على بيتها، وزوجها، وأسرتها وأولادها؛ فهي مسؤولة على تدبير البيت، ورعاية الزَّوج، والنُّصح له، والقيام بحقوقه ومعاونته على دينه ودنياه بالمعروف وبالمستطاع، وكذا رعاية الأولاد والقيام عليهم، وتربيتهم، وإرشادهم لما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد...

فهذه هي المسؤوليَّة الحقيقيَّة للمرأة بنصِّ حديث رسول الله ﷺ ـ والَّذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاَّ وحي يوحى ـ، وهو يدلُّ على أنَّ هذا هو الواجب المتحتِّم على كلِّ امرأة مسلمة تؤمن بالله وباليوم الآخر، أمَّا ما عدا ذلك من الأعمال فهي في دائرة التَّطوُّع أو المباح[9] والَّتي لا ينبغي بحال أن تُزاحم الواجبَ الأصلي، بله أن تحلَّ مكانه، ويصير الواجب مستحبًّا والمستحبُّ أو المباح واجبًا، بل ويصبح هذا الواجب ـ أي القيام على البيت والأولاد ـ تخلُّفًا وسجنًا للمرأة، أمَّا تضييعه والاهتمام بما سواه خارج البيت فهو الأصل والتَّقدُّم والتَّحضُّر.. وهكذا تُعكس القيم، ويصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا...

كلُّ هذا، أدَّى اليوم إلى الإخلال بالوظيفة الأساس للمرأة أو تضييعها، فنتج عنه تلقائيًّا بدائلُ زيَّنها الشَّيطان وحزبُه للمرأة؛ كَرَمْيها بأولادها في دور الحضانة، وتركها لزوجها يبحث عن السَّكينة والمودَّة والحنان، لكن في ما حرَّم الله عز وجل، من اتِّخاذ الخليلات والصَّديقات، ومحادثة النِّساء في كلِّ مكان.. بل وللأسف، فالمرأة نفسها ـ ولأنَّها لا تستطيع أن تنفكَّ عن غريزتها وفطرتها ـ راحت هي أيضًا تبحث عن بعض ما تفقده في بيتها بِمُحادثة الرِّجال والأُنْس بهم في أماكن العمل وغيرها... بل وأكثر من ذلك، ممَّا هو معلوم في مجتمعاتنا اليوم؛ تقليدًا

(8) رواه مسلم (996)، وأبو داود (1692) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(9) يؤكِّده أنَّ النُّصوص من الكتاب والسُّنَّة جاءت آمرة المرأة بالمكوث في بيتها: ﴿وقرن في بيوتكنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، وأُذن لها في الخروج لقضاء حاجاتها، كما قال ﷺ: «قَدْ أَذِنَ لَكُنَّ فِي الْخُرُوجِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِكُنَّ»... وهذا الإذن دالٌّ على أنَّ الأصلَ والعزيمة إنَّما هي البقاء في البيت والقيام عليه، لا العكس، فالنُّصوص ـ إذن ـ كلُّها متلائمة متوافقة، دالَّة على المعنى نفسه، مؤكِّدة له، ولا اختلاف بينها... لأنَّها من مشكاة واحدة.

لأهل الكفر والضَّلال، واتِّباعًا لهم حَذْوَ القُذَّة بالقذَّة.

والسَّبب الرَّئيس هنا؛ أنَّ المرأة تخلَّت عن مسؤوليَّتها الأساس؛ وهي قيامها على بيتها، وراحت تلهثُ خلف سَراب حسبته تقدُّمًا، وحقوقًا، ومساواةً... أوهامٌ يُزيِّنُها شياطين الجنِّ والإنس، وهم يعلمون جيِّدًا فسادها وعواقبها الوخيمة على المجتمعات... فلا الدُّنيا وسعادتها حصَّلوا، ولا مرضاة الرَّحمن أدركوا.

ألا فلتتَّق الله المرأةُ، فإنَّها مسؤولة أمام الله تعالى عن وظيفتها هذه، أحفظتها أم ضيَّعتها، فَأَعِدِّي ـ أَمَةَ الله ـ جوابًا ينفعك يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين، جوابًا يُزحزحك عن النَّار ويدخلك جنَّة النَّعيم، جوابًا عن سؤال في يوم لا رجعة فيه، ولا فرصة لك في استدراكه...

ومكانتك عند زوجك لن تعوِّضها أيُّ امرأة أخرى، فلا تتخلَّيْ عنها للشَّيطان وأتباعه، وأولادك لن يَجدوا أُمًّا ثانية؛ تقوم على تربيتهم وتعليمهم، وتعوِّضهم حنانَ أمِّهم ورعايتها، ولطفها ونصحها... وما عظَّم الإسلامُ حقَّ الأمِّ وأكَّد على وجوب برِّها؛ إلاَّ لعظيم مسؤوليَّتها في بيتها مع أبنائها، فإنْ تخلَّيْت عن مسؤوليَّتك، فأنت تَتَخَلَّيْن تلقائيًّا عن حقِّك العظيم في البرِّ والإحسان...

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر].

■ بعدها تكلَّمَ النَّبيُّ ﷺ في بيانه وتَمثيله عن الخادم ـ وفي حكمه العامل، والموظَّف.... ـ وبيَّن أنَّه مسؤول عن ذلك العمل الَّذي أنيط به، وعن تلك المسؤوليَّة الَّتي استرعاه عليها المالك، أو المسؤول، أو المدير، أو الرَّئيس، أو الأب... فالواجب عليه القيام عليها بما يصلحها وفق طريقة العمل المتَّفق عليها...

فعلى كلِّ عامل أو موظَّف أن يقوم بعمله على الوجه المطلوب؛ لأنَّه مسؤول عنه في الدُّنيا والآخرة؛ أَحَفِظَهُ أَمْ أَضَاعَهُ.. ولا يُعلِّق قيامه بعمله على الوجه الصَّحيح وإتقانه إيَّاه، على قيام النَّاس بأعمالهم ومسؤوليَّاتهم، كما لا يسوِّغ خطأه وتقاعسه بما عليه كثير من النَّاس من تهاون وتضييع للمسؤوليَّات.. بل كلُّ واحد منَّا مُحاسَبٌ ومسؤول عن عمله هو؛ أضاعه أم أقامه؟ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[10].

فالواجب ـ إذن ـ على كلِّ مسلم القيام بمسؤوليَّاته وواجباته حتَّى ولو أضاع النَّاس كلُّهم واجباتِهم، وأَخَلُّوا بمسؤوليَّاتهم، أو تَهاونوا فيها.. وقد ورد عن عبد الله ابن مسعود ﷺ قوله: «لا تكونوا إمَّعة؛ تقولون إن أحسنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وإن ظلموا ظَلَمْنا، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم إن أحسن النَّاسُ أن تُحْسِنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا».

■ ثمَّ ختم النَّبيُّ ﷺ هذا الحديث العظيم، وما تضمَّنه من خطاب قويم، بما بدأ به من تأصيل وتشريع، وأعاد قوله: «**أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**»، تأكيدًا لهذا البيان، وتعظيمًا للمسؤوليَّة المُلقاة على عاتق كلِّ مكلَّف، وسياقُ الحديث فيه تحذير من الخيانة وتضييع الأمانات والمسؤوليَّات، وفيه تخويف للعبد ـ ذكرًا كان أم أنثى ـ بكونه مسؤولاً، ومحاسَبًا يوم يقوم الأشهاد بين يدَيْ ربِّ العباد.

فمن الفوائد العظيمة الَّتي تضمَّنها هذا التَّوجيهُ النَّبويّ، قوله ﷺ: «**أَلاَ كُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ**»، ففيه أنَّ الفرد المسلم له مكانته في المجتمع، وأنَّه لَبِنَةٌ في بناء صرح الأمَّة، وتكوين الجماعة المسلمة، وما يستقيم بناءٌ أو يَصْلُحُ ويعْلُو إلاَّ بصلاح واستقامة لَبناته وأفراده جُلِّهم، وما أخَلَّ أحدٌ بواجباته ومسؤوليَّاته إلاَّ وسبَّب ذلك خللاً وعيبًا ونقصًا في بناء الأمَّة، وعندئذ نقول: لا يَظُنَّنَّ ظانٌّ أنَّه فَضْلَةٌ في المجتمع، وأنَّ قيامه بمسؤوليَّاته أو إهماله لها، لا يزيد في الأمَّة شيئًا ولا يُنقص.

كلاَّ أخي! بل أنت على ثغرة من ثغور الأمَّة في دينها

(10) رواه الترمذي (1264)، وأبوداود (3535)، والدارمي (2631)، والحاكم (2/ 46)... وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (423).

ودنياها، فلا يَدْخُلَنَّ العدُوُّ من جهتك تَوَهُّمًا منك أنَّك نقطة في بحر لا تنفعه ولا تضرُّه... وتأمَّل معي في تلك الخسائر والمصيبة الَّتي لحقت الأمَّة الإسلاميَّة في غزوة أُحُد ـ حيث القائد رسول الله أ ، والرَّعيَّة أصحابه الأفاضل أ ـ حين أخلَّ بعض الأفراد بمسؤوليَّاتِهم؛ فكان ما كان، ودخل العدوُّ من جهتهم، ولَحِقَ برسول الله أ وبأصحابه ما هو معلوم.

ونحو هذا أيضًا: ما جاء في قصَّة سليمان o مع طائر الهُدْهُد، وتفقُّده إيَّاه، ثمَّ توعُّده له بالعقوبة لأنَّه برح مكانه وربَّما أدَّى ذلك إلى الإخلال بواجباته ومسؤوليَّاته.

- يقول العلاَّمة المصلح عبد الحميد بن باديس : معلِّقًا على هذه القصَّة:

«كلُّ واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته ممَّا يقومُ به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزَه، ولا يَدَعِ الخطرَ يدخلُ ولا الخللُ يقع من جهته، فإنَّه إذا قَصَّرَ في ذلك وترك مكانه؛ فتحَ ثغرةَ الفسادِ على قومه وجماعته، وأوجد السَّبيل لتسَرُّب الهلاك إليهم، وزوالُ حَجَرٍ صغير من السَّدِّ المُقام لصَدِّ السَّيْلِ يُفضي إلى خرابِ السَّدِّ بتمامه، فإخلال أيِّ أحد بمَركزه ولو كان أصغر المراكز؛ مُؤَدٍّ إلى الضَّرر العام، وثباتُ كلِّ واحد في مركزه، وقيامه بحراسته، هو مَظْهَرُ النِّظام والتَّضامن، وهما أساس القوَّة»[11].

فما أنفع مثل هذه الكلمات والتَّوجيهات لحال المسلمين اليوم.

إنَّ ما نلاحظه اليوم في مجتمعاتنا، ويشكو منه الكثيرُ من المُربِّين والمصلحين الغيورين؛ من تدنِّي الأخلاق، وكثرة المنكرات، وتفشِّي الجرائم، وقلَّة الأمن، والتَّسرُّب المدرسي، والتَّفسُّخ الأخلاقي الواسع لدى البنات والطَّالبات... هو نتيجة حتميَّة لإهمال الوالدين لمسؤوليَّاتهما.

فالأمُّ تُطاوع الأولاد، وتَسْعى بكلِّ ما تستطيع لتلبية رغباتهم كلِّها وبخاصَّة بناتها، بل وقد تتغاضى عن بعض التَّصرُّفات... مجاراةً لواقع النَّاس، واتِّباعًا لدهمائهم، وخوفًا من تعقيد الأولاد ـ في زعمها ـ....

أمَّا الأب فهو حاضرٌ بجسده، غائب بمسؤوليَّته عن البيت، بل حال الكثير منهم أنَّهم يَقْسِمون وقتهم بين العمل والمقاهي، ويحصرون مسؤوليَّتهم في توفير المأكل والملبس ليس إلاَّ... وهي مسؤوليَّة لا يعجز عنها الحيوان، فما الفرق ـ إذن ـ بين من كرَّمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالفطرة والعقل، وبالرُّسل والرِّسالات، وبين الحيوان؟!

وعليه؛ فإنَّه يتعيَّن لزامًا على كلِّ مكلَّف أداء واجباته ومسؤوليَّاته اتِّجاه نفسه، واتِّجاه من يقوم عليهم ـ من أسرة، أو وظيفة، أو إدارة، أو مؤسَّسة.. ـ ولا ينتظر أداء النَّاس واجباتِهم ومسؤوليَّاتهم، ولا يُعلِّق التزامه بالتزامهم، أو استقامته باستقامتهم، فالكلُّ مسؤول، وأنت لَبِنَة في بناء الأمَّة، فَضَعْ لبنتك موضعَها الصَّحيح، ولا تنتظر الآخرين... أحسنوا أمْ أساؤوا، اجتهدوا أم تخلَّفوا...

وفي هذا تأصيل نبويٌّ قويم لمسؤوليَّات الأفراد وواجباتهم، وفيه من التَّربية النَّفسيَّة ما يجعل الفرد المسلم يتهيَّأ للقيام بواجباته على وجه الصِّحَّة والكمال، دون تواكل أو اعتماد على الغير.. كما أنَّ فيه ـ أيضًا ـ تأصيلاً لسياسة رشيدة؛ تُلقي بظلالها الوارفة على حياة اجتماعيَّة طيِّبة، يسودها الاستقرار والازدهار، والأمنُ والأمان...

نعم؛ فخير الهدي هديُ محمَّد، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

والله أعلم، وهو الموفِّق، والهادي سبيل الرَّشاد.

---

(11) «مجالس التَّذكير من كلام الحكيم الخبير» (ص 348).

التطيُّر والتَّشاؤم

حسن بوقليل
ليسانس في الشريعة الإسلامية ـ الجزائر

إنَّ التَّطيُّر والتَّشاؤُم (Pessimisme) موجودٌ في الأُمَم السَّابقة.

• قال ابنُ رَجب : :

$الطِّيرة من أَعمَال أهلِ الشِّرك والكُفر، وقَد حَكَاها اللَّه تعالى في كتابه عن قَوم فرعَون، وقَوم صَالِحٍ، وأَصحَابِ القَريَة الَّتي جاءَها المُرسَلُون#[1].

وكذلك تطيَّر أصحابُ يونُس o به لَمَّا اقتَرَعُوا وأَلقَوهُ في اليَمِّ[2].

وقد كانَت العَرب في الجاهليَّة يتطيَّرون، $ومنهم مَن كَان لا يُصدِّقُ بذلك، ويُنكِرُه#[3]، وذلك $لأنَّها خواطِرُ، وحُدُوسٌ، وتخميناتٌ لا أَصلَ لها؛ فمَن تبرَّك بشيءٍ مَدَحَه، ومن تَشَاءَم به ذَمَّه#[4].

• قال ابنُ حَجَر : :

$وليَسَ في ذلك ما يَقتَضي ما اعتَقَدُوه فيه، وطلبُ العلم من غَير مَظَانِّه جهلٌ من فاعله، وقَد كَان بعضُ عُقَلاءِ الجاهليَّة يُنكِر التَّطيُّرَ، ويتَمَدَّحُ بتَركه، وكَان أَكثَرُهم يتطيَّرون ويَعتمِدون على ذلك، ويصِحُّ معَهم غالبًا لتَزيين الشَّيطَان ذلك، وبقِيَت من ذلِك بَقايَا في كثيرٍ من المسلمين#[5].

وفي عَصرنا ـ عَصرِ العَولَمَة والتَّطوُّر ـ فَشَا اعتقَادُ طائفة من النَّاس النَّفعَ والضَّرَّ في الأَحجَارِ والأَشجَار، وصَارَت الأَوهَامُ عندَهم حقائقَ؛ فتطيَّروا بكلِّ ما أَملَتهُ عَليهم شَياطينُهم.

وقد أَوضَحت الشَّريعةُ بُطلانَ هذه العقيدة.

$ثمَّ بَعدَ هذَا غَلط فيهَا كثيرٌ من أَذكِياء العَالَم، وعُقَلاءِ بَني آدَمَ، إلَّا أَقلَّ القَليل#[6].

وسَببُه إعرَاضُ القَلب عَن تعلُّم التَّوحيد، وتعرُّضُه لما يُفسِد عَليه عَلَاقَتَه برَبِّه y.

حقيقـة التـطيـر

يقال: الطِّيَرَةُ والطَّيْرَةُ والطِّوَرَةُ[7]، ويقال: تطيَّر بالشَّيء، ومن الشَّيء[8].

• قال ابن الأثير : :

$الطِّيَرَة: ...هي التَّشاؤم بالشَّيء، وهو مصدر تَطَيَّر، يقال: تَطَيَّرَ طِيَرَةً، وتَخيَّرَ خِيَرَةً، ولَم يَجِئ مِن المَصَادِرِ هَكَذا غيرُهُما#[9].

• قال ابن فارس : :

$الطَّاءُ واليَاءُ والرَّاءُ أَصلٌ وَاحدٌ؛ يَدلُّ علَى خِفَّة

(1) $لطائف المعارف# (ص 142).
(2) ومن شُؤم التَّبعيَّة العَميَاءِ للكُفَّار نَجد بعض النَّاس يَصِفُون صَاحِبَ النَّحس ـ عندَهم ـ بقولِهم: $Jonas#، وهو يُونُس o.
(3) $الاستذكار# (54/27).
(4) $مفتاح دار السعادة# (3/268، 269).
(5) $فتح الباري# (10/223 ـ 224) باختصار وتصرف.
(6) مقتبس من مقدمة $الأصول الستة#.
(7) والمشهور الأول. $شرح النووي على مسلم# (14/218).
(8) $القاموس المحيط# (ص432)، و$تاج العروس# (12/453).
(9) $النهاية في غريب الحديث# (ص 564).

الشَّيء في الهَواء.

فَأَمَّا قولُهم: تَطَيَّرَ مِنَ الشَّيء، فَاشْتِقَاقُه مِن الطَّير؛ كَالغُرَاب ومَا أَشْبَهَهُ"[10].

والتَّطيُّر هو: "التَّشاؤم بمرئيٍّ، أو مَسمُوع، أو مَعلُوم"[11].

فـ"المَرئيُّ" كالتَّشاؤم بالحَيوانَات، والجَمادَات، بَل حَتَّى الآدَميِّين.

و"المَسمُوعُ" كَمَن هَمَّ بأمرٍ فسمع أحدًا يقُول: يا خَائِب، فيَتشَاءَم.

و"المَعلُومُ" كالتَّشاؤُم بيَوم الجُمُعَة إذا صَادَف الثَّالث عَشَر من الشَّهر الميلادي، وبِشَهر صَفَر، وشَوَّال، وغَيرها من الأزمنة.

- ويُقال للتَّطيُّر:

- "الشُّؤمُ"؛ لأنَّ العَرب كانَت تَتَشاءَمُ بالطَّير[12].

- "البَخْتُ" - بالفتح -؛ وهو الجَدُّ والحَظُّ، والبَخيتُ والمَبخُوت: ذو الجَدِّ[13]، أي صاحب الحظِّ[14].

حكمُ التَّطير والتَّشاؤم

من تطيَّر فقد أتى نوعًا من الشِّرك، لكنَّه لا يَخرُج من المِلَّة؛ لأنَّه "أشرَك مِن حيثُ إنَّه اعتَمد على هَذا السَّبب الَّذي لم يَجعَلْه اللهُ سَببًا، وهذَا يُضعف التَّوكُّل على الله ويُوهن العَزيمَة، وبذلك يُعتبَر شركًا من هذه النَّاحية، والقَاعدة: "أَنَّ كُلَّ إنسَان اعتَمَدَ عَلَى سَبَبٍ لَم يَجعَلْهُ الشَّرعُ سَبَبًا فَإنَّهُ مُشرِكٌ شِرْكًا أصغر".

وهذَا نوعٌ مِن الإشرَاك معَ الله:

إمَّا في التَّشريع إن كَان هذَا السَّبب شَرعِيًّا.

وإمَّا في التَّقدير إن كَان هذَا السَّبب كَونيًّا.

لَكن لَو اعتقَد هذَا المُتشَائم المتطَيِّرُ أنَّ هذَا فاعلٌ بنَفسه دُونَ الله فَهُوَ مُشركٌ شركًا أكبر؛ لأنَّه جَعل للَّه شَريكًا في الخَلق والإيجَاد"[15].

* والأَدلَّةُ كَثيرةٌ عَلَى نَبذِ التَّطيُّر، وَأَنَّهُ شِركٌ، منهَا:

- قولُ النَّبيِّ ﷺ: "**الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ. ثَلَاثًا، [وَمَا مِنَّا إلَّا، وَلَكنَّ الله يُذهبُهُ بالتَّوكُّل]**"[16].

فقد صرَّح النَّبيُّ ﷺ بأنَّها شِركٌ بالله ﷻ؛ أي نوعٌ منه.

والمُراد بالشِّرك هُنا هُو نَفسُهُ المُرَادُ في قَوله ﷺ: "**مَنْ حَلَفَ بِغيرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ**"، وهَذَا لَا يُخرجُ من المِلَّة[17].

وإنَّما سمَّاها شِركًا؛ لأنَّهم كَانُوا يَرَونَ مَا يَتَشاءَمُونَ به سَببًا مُؤثِّرًا في حُصُول المَكرُوه.

ومُلاحَظَةُ الأَسبَاب في الجُملَة شِركٌ خَفيٌّ، فكَيفَ إذَا انضَمَّ إليها جَهالَةٌ وسُوءُ اعتِقاد[18].

- وقد نَفَى النَّبيُّ ﷺ وُقُوعَ الطِّيَرة، وأبطَلَها، بقَوله ﷺ: "**لَا طِيرَةَ، وَخَيرُهَا الفَأْلُ**".

قيل: وَمَا الفَألُ يَا رَسُول الله؟!

قَال: "**الكَلمَةُ الصَّالحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**"[19]، فلا تَنفَعُ وَلَا تَضُرُّ[20].

وهذَا يَتضمَّن النَّهيَ أيضًا، وأبدَلَها بالفَأل.

- قَال ابنُ العَرَبي المالكيُّ ؒ:

"وهي كَلمة طيِّبةٌ يَسمَعُها الرَّجُل، وكأنَّها من الله،

(10) "معجم مقاييس اللغة" (3/435) - بتصرف.

(11) "القول المفيد" (ص 358).

(12) "تاج العروس" (12/454).

(13) "القاموس المحيط" (ص 147)، "تاج العروس" (4/437).

(14) "تاج العروس" (12/453).

(15) "القول المفيد": (ص 367، 368).

(16) "أبو داود" (3910)، "الترمذي" (1614)، "ابن ماجه" (3538).

(17) "شرح مشكل الآثار" (2/298).

(18) "تحفة الأحوذي" (1/1453 - الأفكار الدولية).

(19) "البخاري" (5755)، "مسلم" (2223).

(20) "النووي على مسلم" (14/218).

والأُولَى مِنَ الشَّيطَانِ#[21].

كَأَن يَسمعَ المَرِيضُ شَخصًا يقُول: يا سَالم، فَيستَبْشِرُ.

• قال النَّوَوِي :

$قال العلماء: وَإِنَّما أَحَبَّ الفَأْلَ؛ لأَنَّ الإِنسَان إِذَا أَمَّلَ فَائدة اللّه تَعَالى، وفَضلَه عند سَببٍ قوِيٍّ أَو ضَعِيف فهُوَ عَلَى خَيرٍ فِي الحَالِ، وَإِن غَلط فِي جِهَة الرَّجاء؛ فالرَّجاءُ لَهُ خَيرٌ.

وأَمَّا إِذَا قطَع رَجَاءه وأَمَلَهُ من اللّه تَعَالى فَإِنَّ ذَلك شرٌّ لَهُ، وَالطِّيَرة فيهَا سُوءُ الظَّنِّ، وتَوَقُّعُ البَلَاءِ#[22].

■ وَقولُه : $الطِّير تجري بِقَدَرٍ# وَكَانَ يُعْجِبُهُ الفَأْلُ الحَسَنُ[23].

قَال المُنَاوي :

$..بقدر: بِأَمرِ اللّه وَقَضَائه؛ كَانُوا فِي الجَاهليَّة إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ سَفَرًا خَرَج فَنَفَّرَ الطَّيرَ؛ فَإِن ذَهَبَ يَمِينًا تَفَاءَل، أو شِمَالًا تَطَيَّر وَرَجَع، فَأَخبَرَ الشَّارِعُ أَنَّ ذَلك لَا أَثَرَ لَهُ#[24].

وَكَذلك يُقَال فِي كُلِّ شَيءٍ يُتَطَيَّرُ بِه: **إِنَّهُ يَجرِي بِقَدَرٍ.**

■ وكَانَ رَجلٌ يَسِيرُ مَعَ طَاوُوس ، فَسَمِعَ غُرَابًا نَعَبَ، فَقَالَ: خَيرٌا فَقَال طَاوُوس: $أَيُّ خَيرٍ عِندَ هَذَا أَو شَرٍّ؟! لَا تَصحَبْنِي، أو لا تَسِرْ مَعِي[25].

التَّطَيُّرُ يُنَافِي التَّوحِيد

• قَال العَلَّامَة ابنُ عُثَيمين :

$وَاعلَم أَنَّ التَّطيُّر يُنَافِي التَّوحِيدَ، ووجه منافاته من وَجهَين:

الأَوَّل: أَنَّ المُتَطيِّر قَطَع تَوكُّلَه عَلَى اللّهِ، وَاعتَمَد عَلَى غَيرِ اللّه.

الثَّاني: أَنَّه تَعَلَّق بِأَمرٍ لَا حَقِيقَة لَه، بَل هُوَ وَهْمٌ وَتَخييلٌ، فَأَيُّ رَابطة بَين هذَا الأَمر وبَين ما يَحصُل لَه.

وهذَا لا شَكَّ أَنَّه يُخِلُّ بالتَّوحيد؛ لأَنَّ التَّوحِيدَ عبادَةٌ واستعانَةٌ، قَال تَعَالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة]، وقَال تَعَالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]»[26].

وهذه حَالُ مَن تَقَطَّعَت بِه أَسبَابُ التَّوكُّل، وتَقَلَّصَ عَنهُ لِبَاسُهُ، بَل تَعَرَّى منه.

ومَن كَانَ هكَذَا فَالبَلَايَا إِلَيه أَسرَعُ، وَالمَصَائِبُ بِه أَعلَقُ، وَالمِحَنُ لَهُ أَلزَمُ[27].

«والمتطيِّرُ لَا يَخلُو من حَالَين:

الأَوَّل: أَن يُحجمَ ويستَجِيبَ لهذه الطِّيَرة ويَدَعَ العَمَلَ، وهذَا من أَعظَم التَّطيُّرِ والتَّشَاؤُم.

الثَّاني: أَن يَمضِيَ؛ لكن فِي قَلَقٍ وَهَمٍّ وغَمٍّ، يخشَى من تَأثِير هذَا المُتَطَيَّر بِه، وهذَا أَهوَنُ.

وكِلَا الأَمرَين نَقصٌ فِي التَّوحِيد، وضَرَرٌ عَلَى العَبِيد.

بَل انطَلِق إِلَى ما تُرِيدُ بِانشرَاح صَدرٍ وتيسير واعتِمَادٍ عَلَى اللّه ، ولَا تُسِئ الظَّنَّ بِاللّه #[28].

أُمُورٌ يَتَطَيّرُ بِهَا النَّاسُ

■ **التَّطيُّرُ بالآدميِّين:**

وهذَا شَائع كثِيرًا؛ فيَتَطيَّرُون بذَمِيم الخلقَة، وكُلِّ مَن تَرفُضُه نُفُوسُهم المُتَشَائِمَة، بَل يَتَوَسَّعُون فِي ذَلك؛ وَلَهُم عِبَارَاتٌ كَثِيرةٌ؛ منها:

(21) $عارضة الأحوذي# (7/116).
(22) $النووي على مسلم# (14/219).
(23) أحمد (24982)، $الصحيحة# (860).
(24) $التيسير بشرح الجامع الصغير#: (2/123).
(25) $المصنف# لعبد الرزاق الصنعاني (19513). وذكر ابن قتيبة نحوه عن ابن عباس في $عيون الأخبار# (1/233).
(26) $القول المفيد# (1/560).
(27) $مفتاح دار السعادة# (3/273).
(28) $القول المفيد# (ص 358).

ـ $مَارْبَحْتَشْ عْليكْ#، أي لم أَرْبح بسَببك(29)، وما علِمَ المُتشائمُ أنَّ الله $هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ#.

ـ $ترُوحْ لَلبْحَرْ تَلْقَاهْ نَاشَفْ#: لو يذهب إلى البحر يجده جافًا، أي: أنَّهُ لَا حَظَّ لَهُ فِي الأَشيَاءِ كُلِّهَا، حَتَّى فِي البَحرِ عَلَى سَعَته!!

■ **التَّطيُّر بالحيوانات:**

وهذَا يَختلفُ باعتبَارَات؛ وَمن الحيَوانَات الَّتي يُتَطيَّرُ بهَا:

ـ **الغُرَابُ:** فَتجد أنَّ العَرب تَطيَّرت به، وسَمُّوهُ حَاتمًا $لأنَّهُ كَانَ عندهُم يَحتِمُ بالفرَاق#(30).

ـ **الثَّورُ الأَعضَب:** ـ وَهُوَ مَكسُورُ القَرن ـ.

ـ **الجَرَادَةُ:** لجَرْدها، وكثرَة ألوَانها(31).

ـ **الهَامَةُ (البُومَةُ):** إذَا وَقعَت على بيت أحدهم، يَقُول: نَعَتْ إليَّ نَفسي أو أَحَدًا من أهل دَاري.

فَجَاء الحديثُ بنَفي ذَلك وَإبطَاله: $**لا عَدْوَى، وَلَا طِيرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ**#(32).

ـ **القطُّ الأَسوَدُ:** فِي وَقتنَا تَطيَّرُوا به لسَوَاده؛ فَإنَّه رَمزٌ للشَّرِّ.

■ **التَّطيُّر ببَعض الأَسماء:**

فبَعضُهُم إذَا سَمِع سَفرجَلًا، أو أُهديَ إليه تَطيَّر به: وقَال: سفرٌ، وجلاءٌ، وإذَا رَأى يَاسَمينًا، أو سَمعَ اسمَهُ تَطيَّر به، وقَال: يأسٌ، ومَيْنٌ، وإذَا رَأى سَوسَنَةً، أو سَمعَهَا قَالَ: سوءٌ يَبقَى سَنَةً(33).

(29) وتجد ألوانا من هذه العبارات عند التجار.

(30) $مفتاح دار السعادة# (3/270)، وسموه $الأعور# لأنَّه حديد البصر خوفا من عينه. $الحيوان# (3/439).

(31) $الحيوان# (3/439).

(32) البخاري (5757).

(33) $مفتاح دار السعادة# (3/272)، وذكر الذهبي ؒ في $السير# (14/248) في ترجمة يموت بن المزرع أنه كان لا يعود مريضًا حتى لا يَتطيَّر باسمه. وانظر بعض أنواع التطير بالأفعال والأصوات في $عيون الأخبار# (1/239ـ242).

■ **التَّطيُّر ببَعض الأَفعَال:**

ـ مثل: كَنس دَار المُسافر يَومَ سَفَره: زاعمين أَنَّ ذلك سببٌ في هَلاكه.

ـ تَقليم الأَظفَار لَيلًا.

ـ وأكل اللُّبان لَيلًا.

ـ وخياطَة الثَّوب في عَاشُورَاء، أو مَا يُسَمَّى عندنا $العَوَاشير#.

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ:

$وَلَا يُكرَهُ التَّفصيلُ وَلَا الخيَاطَةُ، وَلَا الغَزْلُ وَلَا نَحوُ ذَلك من الأَفعَال في يَومٍ من الأَيَّام، والنَّبيُّ قَد نَهى عَن التَّطيُّر#(34).

ـ وَيَتطيَّرُونَ بالعُطَاس: وأَصلُه تَطيُّرهم بدَابَّةٍ يَكرَهُونَهَا، يُقَال لَهَا العَاطُوس(35).

■ **التَّطيُّر ببَعض الأَيَّام والشُّهُور:**

ـ فيَتَشاءَمُون من السَّفَر في بَعض الأَيَّام(36)، كيوم الأربعاء.

ـ وَيَتشاءَمُون بيوم الجُمُعَة إذَا صَادَف الثَّالث عَشر من كُلِّ شَهر إفرَنجيٍّ.

ـ ويَتَطيَّرُون بشَهر صَفَر(37)، وشَوَّال؛ فَلَا يَتزَوَّجُون فيه، لذَا خَالَفتهُم أُمُّ المؤمنين عائشَة ؓ؛ فقَالَت: تزوَّجَني رَسُولُ الله ﷺ في شَوَّال، وأُدخلْتُ عَلَيه في شَوَّال، ـ وكَانَت عَائشَةُ تُحبُّ أَن تُدخلَ نسَاءَهَا في شَوَّالٍ ـ، فَأَيُّ نسَائه كَانَت أَحْظَى عندَهُ منِّي؟!(38).

(34) $الفتاوى الكبرى# (4/411) بتصرف يسير.

(35) $فتح الحميد# (3/1086).

(36) $السنن والمبتدعات# (ص 333)، وانظر: $الفتاوى الكبرى# (4/411).

(37) وَبَعضُ النَّاس إذَا انتَهَى من شَيءٍ في صَفَر أَرَّخَ ذَلك، وَقَال: انتَهَى في صَفَر الخَير، وَهَذَا من بَاب مُدَاوَاة البدعَة بالبدعَة، وَالجَهل بالجَهل، فَهُوَ لَيسَ شَهرَ خَيرٍ وَلَا شَهرَ شَرٍّ. $القول المفيد# (ص 362).

(38) $صحيح سنن النسائي# (3236).



آثَارُ التَّطَيُّرِ

• قَال العَلَّامَة ابنُ القَيِّم : :

$والمُتَطيِّر مُتعَبُ القَلب، مُنكَّد الصَّدر، كَاسِفُ البَال[39]، سيِّءُ الخُلُق، يَتخَيَّلُ من كُلِّ مَا يَراهُ أو يَسمَعُه، أشدُّ النَّاسِ خَوفًا، وَأنكَدُهم عَيشًا، وَأَضيَقُ النَّاس صَدرًا، وأَحزَنُهم قَلبًا، كَثِيرُ الاحتِراز والمُراعَاة لما لا يَضرُّهُ ولا يَنفَعُه، وكم قد حَرَم نَفسَه بذلك من حَظ! وَمَنَعهَا من رزقٍ! وقطَع عَلَيها من فَائِدَة!#[40].

التَّخَلُّصُ مِنَ التَّطَيُّرِ

قَد جَاءَت في السُّنَّة المُطَهَّرَة أَحَاديث تُبَيِّن كَيفيَّةَ التَّخَلُّص مِنَ التَّطَيُّرِ؛ وِقَايَةً مِنهُ، وَعِلاَجًا لَهُ، فمن أسباب التخلص منه:

■ التوكل على الله y ؛ ففي حديث ابن مسعود Ç يرفعه: $اَلطِّيَرَةُ شِركٌ، وَمَا مِنَّا إلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ#.

■ أن يمضي في قصده ولا يرجع لأجلها؛ قال أ : $مَن رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ فَقَد قَارَفَ الشِّركَ#[41]، وقال أ : $لَن يَلِجَ الدَّرَجَاتِ العُلَى مَن تَكَهَّنَ، أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو رَجَعَ مِن سَفَرِه تَطَيُّرًا#[42]، وقال أ : $إذَا ظَنَنتُم فَلَا تُحَقِّقُوا، وَإذَا حَسَدتُم فَلَا تَبغُوا، وَإذَا تَطَيَّرتُم فَامضُوا وَعَلَى اللهِ تَوَكَّلُوا، وَإذَا وَزَنتُم فَأَرجِحُوا#[43].

(39) سَيِّءَ الحَال: $القاموس المحيط# (مادة: كسف).

(40) $مفتاح دار السعادة# (3/273).

(41) $الصحيحة# (1065).

(42) $الصحيحة# (2161).

(43) $الصحيحة# (3942).

فالإنسان قد يجد في قلبه تطيرا، وقد قال النَّبيُّ أ : $ذَاكَ شَيءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِم فَلا يَصُدَّنَّهُم#[44].

• قال الإمام النووي : :

$قال العلماء معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة، ولا عتب عليكم في ذلك، فإنَّه غير مكتسب لكم، فلا تكليف به؛ وَلَكِن لا تَمتَنِعُوا بِسَبَبِه مِنَ التَّصَرُّف فِي أُمُورِكُم، فَهَذَا هُوَ الَّذي تَقدِرُونَ عَلَيهِ، وَهُوَ مُكتَسب لَكُم فَيَقَع به التَّكليف، فَنَهَاهُمُ أ عَن العَمَلِ بِالطِّيَرَة وَالامتِنَاع مِن تَصَرُّفَاتِهِم بِسَبَبِهَا، وَقَد تَظَاهَرَت الأَحَادِيث الصَّحِيحَة فِي النَّهي عَن التَّطَيُّر، وَالطِّيَرَة هِيَ مَحمُولَة عَلَى العَمَل بِهَا لا عَلَى مَا يُوجَد فِي النَّفس مِن غَير عَمَل عَلَى مُقتَضَاهُ عِندهم#[45].

■ الدُّعاء؛ فقد ثبت أنَّ النَّبيَّ أ سئل عن كفَّارة مَن ردَّته الطِّيرة، فقال: $يَقُولُ أَحَدُهُم: اللَّهُمَّ لا طَيرَ إلَّا طَيرُك، وَلا خَيرَ إلاَّ خَيرُك، وَلا إلَهَ غَيرُك#[46].

ولهذا ينبغي للمسلم أن يتوكل على الله Ĵ ، ولا يلتفت للوساوس، وليعلم أن ما أصابه من شيء فمن الله Ĵ ، وليكن على ذكر دائما من قول النبي أ : $لا يُؤمِنُ عَبدٌ حَتَّى يُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِه وَشَرِّه، حَتَّى يَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبَهُ#[47].

والنُّصوص في هذا كثيرة، ولشيخ الإسلام ابن تيمية : كلام جميل في كتابه $التحفة العراقية#.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(44) $مسلم# (537).

(45) $شرح مسلم# (5/22، 23).

(46) وهو جزء من حديث سبق قريبا، وهو في $الصحيحة# برقم (1065).

(47) الترمذي (2144)، $الصحيحة# (2439).

دراسة الأحاديث الواردة في
التصدق بشعر المولود فضة

د/رضا بوشامة
أستاذ علوم الحديث بجامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

إنَّ من محاسن الدِّين الإسلامي عنايته بمظهر الإنسان من حين ولادته إلى وفاته ولحوقه بالعالم الأخروي، وقد أرشدنا النَّبيُّ ﷺ عند ولادة المولود بإزالة الأذى عنه، فحثَّ على حلق شعر المولود يوم سابعه، فقال فيما رواه التِّرمذي في «السُّنن» كتاب الأضاحي، باب من العقيقة (1522)، وغيرُه من حديث سمرة ﭬ: «**الغُلاَمُ مُرْتَهَنٌ بعَقيقَته يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابعِ، وَيُسَمَّى، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ**»، وقال التِّرمذي: «حسن صحيح».

وروى البخاري في «صحيحه» كتاب العقيقة، باب: إماطة الأذى عن الصَّبيِّ (5472) عن سلمان بن عامر الضّبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَعَ الغُلاَمِ عَقيقَةٌ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَمًا، وَأَميطُوا عَنْهُ الأَذَى**».

والمراد بالأذى في الحديث هو الشَّعر الَّذي أُمرَ الوليُّ بحلقه على قول بعض أهل العلم، وحَمَلَهُ غيرُهم على العموم، فيدخل فيه الشَّعر من باب أولى.

هذا من حيث الحَلْق، وهو مشروع بسنَّة نبيِّنا ﷺ.

❋ وقد وردت أحاديث أخر في استحباب وزن شعر المولود والتَّصدُّق بزنته فضَّةً.

وسأعرض تلك الأحاديث والآثار، مستعينًا بالله - جلَّ وعلا - في ذلك؛ فأقول:

روي هذا الحديث من طُرُق، من فعل فاطمة ڤ موقوفًا عليها، ومن أمر النَّبيِّ ﷺ وفعله.

ويمكن تلخيص ذلك في ثلاثة أحاديث.

الحديث الأوّل: عن فاطمة ڤ

ورد عنها (على اختلاف في الرَّفع والوقف والإرسال والوصل) من ثلاث طرق:

■ **الطَّريق الأوَّل. مداره على محمَّد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي:**

ورُوي عنه من خمسة أوجه:

◩ الوجه الأوَّل. جعفر بن محمَّد، عن أبيه محمَّد ابن علي بن الحسين:

أخرج مالك في «الموطَّأ»، كتاب: العقيقة، باب ما جاء في العقيقة: (1/643) (1442) عن جعفر ابن محمَّد، عن أبيه، أنَّه قال: «**وَزَنَتْ فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ شعرَ حَسن وحُسين، وزينب وأم كلثوم، فتصدَّقت بزِنَة ذلك فضة**».

وأخرجه ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (6/354) عن معن بن عيسى.

وفي (6/355) عن محمَّد بن عمر الواقدي.

والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (9/304) من طريق يحيى بن بكير.

وأبو داود في «المراسيل» (380) عن عبد الله ابن مسلمة.

أربعتهم عن مالك، عن جعفر بن محمَّد به.

وهذا السَّند مرسل؛ فإنَّ محمَّد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب أبا جعفر الباقر من طبقة التَّابعين، لم يسمع من جدَّيه الحسن والحسين، ولم يدرك عليَّ بن أبي طالب، فكيف بفاطمة á التَّي توفِّيت بعد النَّبيِّ ﷺ بأشهر.

○ ووافق مالكًا على هذه الرِّواية:

1. يحيى بن سعيد القطَّان، أخرجه من طريقه ابن أبي الدُّنيا في كتاب «العيال» (49).

2. أنس بن عياض أبو ضمرة اللَّيثي، أخرجه عنه ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (6/354)، والدّولابي في «الذُّرِّيَّة الطَّاهرة» (ص 85)، والبغوي في «معجم الصَّحابة» (2/8).

3. وسليمان بن بلال. من رواية خالد ابن مخلد عنه. رواه عنه ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (6/354).

وخالف القعنبيُّ خالدًا، فرواه عن سليمان ابن بلال، عن جعفر بن محمَّد بن علي، عن أبيه، عن جدِّه: «**أنَّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ذبحت عن حسن وحسين حين ولدتهما شاة، وحلقت شعورهما ثمَّ تصدَّقت بوزنه فضَّة**».

أخرجه من طريقه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (9/304)، لكن راويه عن القعنبي الحسن ابن موسى، لم يكن في الحديث بذاك، وتكلم فيه مسلمة ابن قاسم وابن يونس، كما في «اللِّسان» (8/194)، فرواية خالد بن مخلد عن سليمان أرجح، وهي موافقة لرواية مالك.

وعلى فرض صحَّة طريق القعنبي عنه؛ فجدُّه هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو من طبقة التَّابعين، ولم يدرك فاطمة، فالسَّند أيضًا مرسل.

4. خارجة بن مصعب، أخرجه من طريقه ابن أبي الدُّنيا في «العيال» (51) عن جعفر بن محمَّد عن أبيه: «**أنَّ النَّبيَّ ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين بكبش كبش وحلق رؤوسهما يوم السَّابع وتصدَّق بزنة شعورهما وَرِقًا**».

وخارجة بن مصعب متروك الحديث.

5. أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (6/355) عن جعفر، عن أبيه قال: «**أمر النَّبيُّ ﷺ أن يُتصدَّق بزنة شعر حسن وحسين فوزن شعر أحدهما فوجد ثلثي درهم**»؛ لكن في الإسناد الواقدي، وهو متروك.

6. سعيد بن محمَّد، أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (6/355)، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه قال: «**ما بلغ زنة شعورهما درهمًا**» هكذا مختصرًا، لكن في الإسناد إليه الواقدي أيضًا.

وخالف هؤلاء الرُّواة (مالكًا والقطَّان وأنس ابن عياض وسليمان بن بلال): حسين بن زيد، فرواه عن جعفر بن محمَّد الصَّادق، عن أبيه، عن جدِّه، عن عليٍّ ابن أبي طالب Ç: أنَّ رسول الله ﷺ أمر فاطمة á، فقال: «**زِني شَعْرَ الحُسَيْنِ وَتَصَدَّقِي بوَزْنِه فضَّةً**...».

أخرجه الحاكم في «المستدرك» (3/214)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (9/304) من طريق سعيد بن عبد الرَّحمن المخزومي، عن حسين بن زيد به.

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وتعقَّبه الذَّهبيُّ بقوله: «لا».

قلت: في سنده حسين بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب أبو عبد الله الكوفي، سأل ابن أبي حاتم أباه عنه فحرَّك يده وقلبها، يعني: «تعرف وتنكر» [«الجرح والتعديل» (3/53)].

ولخَّص ابن حجر أقوال الأئمَّة فيه؛ فقال كما في «التَّقريب»: «صدوق ربَّما أخطأ».

قلت: وهذا الحديث ممَّا أخطأ فيه، فقد خالفه الإمام مالك، وروايته أصحُّ وأرجح؛ لثقته وإمامته، خاصَّةً أنَّ مالكًا تابعه يحيى القطَّان وأنس بن عياض وسليمان بن بلال في رواية خالد ابن مخلد عنه.

ثمَّ إنَّ حسين بن زيد قد روي عنه رواية موافقة لرواية مالك وغيره، فأخرجه الدّولابي في «الذُّرِّيَّة الطَّاهرة» (ص86) قال: أخبرني أبو عبد الله الحسين ابن علي، عن أبيه علي ابن الحسن، قال: حدَّثني حسين بن زيد بن علي، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين، وأمر بزنة شعورهما فضَّة، فتصدَّق به...».

ووقع في «الذُّرِّيَّة الطَّاهرة»: «حدَّثني حسين ابن زيد بن علي بن جعفر بن محمَّد عن أبيه»، والصَّواب: «حدَّثني حسين بن زيد بن علي عن جعفر بن محمَّد عن أبيه».

فأرجح الطُّرق عن جعفر بن محمَّد رواية مالك ومن تابعه، عنه، عن أبيه مرسلاً؛ لثقة وكثرة من رواه كذلك.

ويؤيِّده الأوجه التَّالية المرويَّة عن محمَّد ابن علي ابن الحسين مرسلاً.

◪ الوجه الثَّاني ـ ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن، عن محمَّد بن علي بن الحسين:

أخرجه مالك في «الموطَّأ» العقيقة، باب ما جاء في العقيقة: (644/1) (1442) عن ربيعة ابن أبي عبد الرَّحمن، عن محمَّد بن علي ابن الحسين، أنَّه قال: «وزَنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ شعر حسن وحسينٍ، فتصدَّقت بزنته فضَّةً».

وأخرجه ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (354/6) عن معن بن عيسى، عن مالك به.

○ وتابعه على هذا الوجه:

ـ سليمان بن بلال عند ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (354/6) ولفظه: «حلق رسول الله ﷺ حسنًا وحسينًا ثمَّ تصدَّق بزنة أشعارهما فضَّة».

وخالفهما (مالكًا وسليمان) عبد الله بنُ لهيعة عن عُمارة بن غزية:

فرواه البزَّار في «مسنده» (74/2 ـ كشف الأستار)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (17/3) (2575)، وفي «الأوسط» (46/1) (127)، والدّولابي في «الذُّرِّيَّة الطَّاهرة» (ص 85) من طرق عن عبد الله بن لَهيعة، عن عُمارة ابن غزية، عن ربيعة ابن أبي عبد الرَّحمن، عن أنس بن مالك: «أنَّ رسول الله ﷺ أمر برأس الحسن أو الحسين يوم سابعه أن يُحلق ويُتصدَّق بوزنه فضة» لفظ البزَّار.

وعند الطَّبراني: «أمر برأس الحسن والحسين».

وفي إسناده عبد الله بن لَهيعة، وهو ضعيف إذا انفرد، فكيف إذا خالف!

وعمارة بن غزيَّة لا بأس به، كما في «التَّقريب» لابن حجر، ورواية مالك وسليمان عن ربيعة أرجح وأصحُّ، ولا يمكن اعتبار هذه الرِّواية شاهدة لحديث مالك، كما ذكره بعض الباحثين للمخالفة، ثمَّ وَجَدْتُ ـ بحمد الله ـ ابنَ عبد البرِّ نصَّ على هذه العلَّة؛ فذكر طريقَ ابن لَهيعة في «الاستذكار» (370/15) وقال: «وهذا الحديث قد رُوي عن ربيعة عن أنس، وهو خطأٌ، والصَّواب عن ربيعةَ مَا في «الموطَّأ»».

◪ الوجه الثَّالث ـ عمرو بن دينار، عن أبي جعفر محمَّد بن علي بن الحسين:

أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (333/4)، وابن سعد في «الطَّبقات» (355/6)، وابن أبي الدنيا في «العيال» (80) عن ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي جعفر: «**أنَّ فاطمة وزنت شعر الحسن والحسين فتصدَّقت بوزن ذلك فضة**».

◪ الوجه الرَّابع- ابن جريج، عن محمَّد ابن علي ابن الحسين:

أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (333/4) عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج قال: سمعت محمَّد بن علي يقول: «**كانت فاطمة ابنة رسول الله أ لا يولد لها ولد إلاَّ أمرت به فحُلق، ثمَّ تصدَّقت بوزن شعره ورِقًا، قالت: وكان أبي يفعل ذلك**».

كذا في «المصنَّف»، ولعلَّه: «قال: وكان أبي يفعل ذلك» من قول محمَّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ ابن أبي طالب، لا من قول فاطمة á ، والله أعلم.

◪ الوجه الخامس- عبد الملك بن أعين عن محمد ابن علي بن الحسين:

أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (177/8) عن عبدة بن سليمان عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عبد الملك بن أعين به.

○○○

فَتَلَخَّصَ من هذا أنَّ جعفرَ بنَ محمَّد وربيعةَ ابن أبي عبد الرَّحمن (على أرجح الرِّوايات) وابن جريج وعمرو بن دينار وعبد الملك بن أعين رَوَوْهُ عن محمَّد ابن علي بن الحسين مرسلاً.

وخالفهم في الرِّواية: محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم المدني.

فرواه عنه، عن محمَّد بن علي بن الحسين، عن علي ابن أبي طالب Ç .

أخرجه التِّرمذي في «الجامع» في أبواب الأضاحي، باب: العقيقة بشاة (1519)، قال: حدَّثنا محمَّد ابن يحيى القُطَعِيُّ، قال: حدَّثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن محمَّد بن علي بن الحسين، عن علي بن أبي طالب قال: «**عقَّ رسول الله أ عن الحسن بشاة، وقال: يا فاطمة! احلقي رأسه وتصدَّقي بزنة شعره فضَّةً**»، **قال: فوزنته فكان وزنه درهمًا أو بعض درهم**.

قال التِّرمذي: «هذا حديث حسن غريب، وإسناده ليس بمتَّصل، وأبو جعفر محمَّد بن عليٍّ بن الحسين لم يُدرك عليَّ بنَ أبي طالب».

وذكر البيهقيُّ هذا الطَّريق تعليقًا في «السُّنن الكبرى» (304/9)، وقال: «وهذا أيضًا مُنْقَطِعٌ».

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (365/4 ـ 366): حدَّثنا أبو الطَّيِّب محمَّد بن علي بن الحسن الحيري من أصل كتابه، ثنا محمَّد بن عبد الوهَّاب الفرَّاء، ثنا يعلى بن عبيد، ثنا محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن محمَّد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جدِّه، عن عليّ بن أبي طالب Ç به.

وسكتَ عليه هو والذَّهبيُّ، وشيخُ الحاكم لم أَقِفْ على ترجمته.

وذكر البيهقيُّ هذه الرِّواية تعليقًا، ثمَّ قال: «ولا أدري محفوظٌ هو أَمْ لا؟».

قلت: في كلا الإسنادين محمَّد بن إسحاق ابن يسار، مدلس وقد عَنْعَنَ في هَذَيْن الطَّريقين، ولم يصرِّح بالتَّحديث.

هذه مُجْمَلُ الرِّوايات الَّتي وردت عن محمَّد ابن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب.

وأصحُّ الرِّوايات عنه رواية جعفر بن محمَّد، وربيعة، وابن جريج، وعمرو بن دينار وعبد الملك ابن أعين عن محمَّد بن علي بن الحسين مرسلاً، فمحمَّد ابن علي بن الحسين لم يُدرِكْ عليَّ بن أبي طالب وأرسل عن جدَّيه الحسن والحسين ابني عليّ بن أبي طالب، فكيف بفاطمة بنت رسول الله ﷺ؟! فالإسناد إليها مُنقطعٌ لم يَصِح.

■ **الطَّريق الثَّاني. عن الحسن بن محمَّد ابن عليٍّ: أنَّ فاطمة...**

أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (355/6) عن الواقدي، عن إبراهيم بن يزيد الخوزي، عن عمرو ابن دينار، عن الحسن بن محمَّد بن علي: «**أنَّ فاطمة عقَّت عن حسن بجزور، وحلقت رأسه فتصدَّقت بزنته ذهبًا وفضَّة على المساكين**».

وسنده واهٍ، فيه الواقديُّ وهو مَتْرُوكٌ، وإبراهيمُ ابنُ يزيد الخوزي متروكُ الحديث أيضًا، كما في «التَّقريب»، وقد خالفه ابن عُيَيْنَة؛ فرواه عن عَمْرو، عن محمَّد ابن علي بن الحسين مرسلاً، كما تقدَّم في الوجه الثَّالث.

الحديث الثَّاني: من حديث أبي رافعٍ مَوْلَى رسولِ الله ﷺ.

رواه عبد الله بن محمَّد بن عَقيل، عن عليّ ابن الحُسين، عن أبي رافع.

روي عنه من عدَّة طرق:

■ **طريق شريك بن عبد الله القاضي والاختلاف عليه:**

أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (163/45) عن أبي النَّضر ومحمَّد بن نمير.

وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (173/8) عن محمَّد بن عبد الله الأسدي.

وابن أبي الدُّنيا في «العيال» (52) عن بشر ابن الوليد.

والطَّبراني في «المعجم الكبير» (310/1) (917)، وأبو نعيم في الحلية (339/1) من طريق موسى ابن داود الضّبي، ومعلى بن مهدي.

وابن أبي الدُّنيا في «العيال» (52).

والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» (304/9) من طريق عليّ بن الجعد.

سبعتهم عن شريك بن عبد الله القاضي، عن عبد الله بن محمَّد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا وَلدت فاطمةُ حسنًا، قالت: ألا أعقُّ عن ابني بدم؟ قال: لاَ، وَلَكِنْ احْلقي رَأْسَهُ، ثُمَّ تَصدَّقي بوَزْنِ شَعْرِه مِنْ فضَّة عَلَى المَسَاكِين أَوْ الأَوفَاض**»، **وكان الأوفاض ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في المسجد أو في الصّفَّة**، لفظ أحمد من طريق محمَّد بن نمير.

ولفظه من طريق أبي النَّضر: «**...مِنَ الوَرق عَلَى الأوفَاض. يعني أهل الصُّفَّة. أَوْ عَلَى المَسَاكِين، ففعلت ذلك، قالت: فلمَّا ولدت حسينًا فعلتُ مثلَ ذلك**».

○ وخالف هؤلاء الرُّواة عن شريك بن عبد الله القاضي اثنان:

1. أبو الوليد الطَّيالسي هشام بن عبد الملك، فرواه عن شريك، عن عبد الله بن محمَّد ابن عقيل، عن علي ابن الحسين قال: «لمَّا ولدت فاطمة...»، أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (354/6)، وهذا مرسل.

2. ابن الأصبهاني محمَّد بن سعيد بن سليمان أبو جعفر الكوفي، فرواه عن شريك، عن عبد الله بن محمَّد

ابن عقيل، عن علي بن الحسين، عن فاطمة قالت: «لمَّا ولدتُ حسينًا...» الحديث.

أخرجه ابن أبي خيثمة في التَّاريخ (671 ـ رسالة ماجستير) عن ابن الأصبهاني به.

وهذا منقطع، فعليُّ بن الحسين لم يدرك فاطمة á .

وهذا الاختلاف على شريك بالأوجه المذكورة؛ قد يكون منشَؤُه شريك بن عبد الله القاضي نفسه، أو عبد الله بن محمَّد بن عقيل، فشريك سيِّء الحفظ، وابن عقيل ضعيفٌ كما سيأتي.

○ ورُوي عن شريك بوجه آخر ـ أيضًا ـ، وهو الوجه الثَّالث عنه:

أخرجه الرّوياني في «المسند» (469/1) (708)، قال حدَّثنا سفيان، عن إسحاق بن منصور وأبي داود الحفري، كلاهما عن شريك، عن عاصم بن عبيد الله، عن علي بن الحسين، عن أبي رافع: «**أنَّ النَّبيَّ** أ **أذَّن في أذن الحسن والحسين حين وُلدَا، وتصدَّق بوزن شعرهما فضَّةً**».

ولعلَّ الوهمَ في هذا الإسناد من سفيان شيخ الرّوياني، وهو ابن وكيع بن الجرَّاح، سيِّء الحفظ ترك حديثه، وصوابه: عاصم بن عبيد الله، عن عُبَيْد الله ابن أبي رافع، عن أبي رافع بقصَّة التَّأذين فقط دون التَّصدُّق بالشَّعر، كما عند أبي داود في «السُّنن» (333/5) (5105) والتِّرمذي (82/4) (1514)، وغيرهما من طرق عن الثَّوري، عن عاصم به.

وهو ضعيفٌ من أجل عاصم بن عبيد الله، كما ذكرته في مقال «الأحاديث الواردة في التَّأذين في أذن الصَّبيِّ بعد ولادته»، منشور في موقع «راية الإصلاح».

❊ ووافق شريكًا على رواية الجماعة عنه: عبد الله بن محمَّد بن عقيل، عن علي بن الحُسين، عن أبي رافع.

أ ـ عُبَيْد الله بن عَمرو الرّقي، رواه الإمام أحمد في «المسند» (173/45) عن زكريَّا بن يحيى، عن عُبَيْد الله الرّقي به.

وذكر الدَّارقطني في «العلل» (21/7) أنَّ أبا نعيم الحَلَبي ـ واسمه عُبيد بن هشام ـ رواه عن عُبيد الله ابن عَمرو الرّقي، عن ابن عقيل، عن أبي سَلَمَة، عن علي ابن الحسين، قال الدَّارقطني: «وذكر أبي سلمة فيه وهم».

ب ـ سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، عند الطَّبراني في «المعجم الكبير» (311/1) (30/3) (2578) (918)، والبيهقي في «السُّنن الكُبرى» (304/9).

جـ ـ الإمام الثَّوري عند ابن سعد في «الطَّبقات الكبير» (355/6)، لكن في السَّند إليه محمَّد بن عمر الواقدي وهو متروك.

ورواه الواقدي ـ في المصدر السَّابق ـ وفي «الذرية الطاهرة» (99) أيضًا عن الثَّوري عن ابن عقيل، عن علي بن الحسين قال: «**عقَّ رسول الله** أ **عن الحسن بكبش، وحلق رأسَه، وأمر أن يتصدَّق بزنته فضَّةً على الأوفاض**»، كرواية أبي الوليد الطَّيَالسي عن شريك عن ابن عقيل سواء.

لكن الواقديّ متروك.

وفي كلِّ الطُّرق المتقدِّمة عبد الله بن محمَّد ابن عَقيل بن أبي طالب، وعامَّة أهلِ العلم على تضعيفه، وهو سيِّء الحفظ، منكرُ الحديث، يُختلف عنه في الأسانيد، انظر «تهذيب الكمال» (78/16).

ولعلَّ صواب هذا الإسناد عن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب مرسلاً، وذكر أبي رافع فيه وَهْمٌ من ابن عقيل، وأبو رافع روي عنه حديث التَّأذين فَحَسْب،

فحمل ابنُ عقيل هذا الحديث عن عليّ بن الحسين عن أبي رافع، وتقدَّم أنَّ حديث أبي رافع تفرَّد به أحد الضُّعفاء.

فهذا احتمال وقد يؤيِّده أنَّ علي بن الحسين لا يعرف بكثرة الرِّواية عن أبي رافع، وما روي عنه جاء فقط من طريق ابن عقيل أو عاصم بن عُبيد اللَّه، وكلاهما ضعيف، وهي أحاديث معدودة لا تتجاوز خمسة أحاديث كما في ترجمة أبي رافع من «تحفة الأشراف» (203/9)، حيث ذكر له حديثًا واحدًا فقط في «عمل اليوم واللَّيلة» للنَّسائي، وبقيَّة الأحاديث مذكورة في «إتحاف المهرة» (252/14) و«المعجم الكبير» للطَّبراني (310/1).

فلعلَّ هذا يؤيِّد أنَّ الحديثَ يُعرف فقط من رواية محمَّد بن علي بن الحسين مرسلاً، كما رواه الثِّقات كجعفر بن محمَّد، وربيعة، وابن جريج وعمرو بن دينار وعبد الملك بن أعين.

○○○

وبالجملة: فإنَّ طريق ابن عقيل عن علي ابن الحسين عن أبي رافع لا يصحُّ؛ لضعف ابن عقيل وسوء حفظه، فلا يُقبل ما تفرَّد به عن سائر الرُّواة، والحديث صوابه الإرسال، كما رواه الرُّواة عن محمَّد بن علي ابن الحسين، خاصَّةً أنَّ في متنه نكارة؛ إذ فيه أنَّ فاطمة استأذنت النَّبيَّ ﷺ في العقيقة: «**قالت: ألا أعقُّ عن ابني بدم؟ قال: لاَ، وَلَكِن احْلِقِي رَأْسَهُ، ثُمَّ تَصَدَّقِي بِوَزْنِ شَعْرِهِ مِنْ فضةٍ عَلَى المَسَاكِينِ أَوْ الأَوْفَاضِ**».

وإنْ كان قد جُمع بين حديث ابن عقيل وغيره من الأحاديث المصرِّحة بعقِّ النَّبيِّ ﷺ عن الحسن والحسين، والصَّواب أنَّ حديثه هذا لا يَرْتَقِي إلى الحسن، كما ذهب إليه الشَّيخ الألباني ؒ في «الإرواء» (402/4 ـ 404)، وقال: «وهو حسن الحديث إذا لم يُخالف، وظاهر حديثه مخالفٌ لِمَا استفاض عنه ﷺ أنَّه عقَّ عن الحسن والحسين ؆، كما تقدَّم برقم (1150).

وأجيب عن ذلك بجوابين ذكرهما الحافظ في الفتح...».

ثمَّ ذكر الشَّيخ جوابًا ثالثًا نقله عن البيهقيِّ.

لكن يَبْقَى الإشكال في تفرُّد ابن عقيل بهذا الحديث، وتقدَّم أنَّ الرُّواة الثِّقات يخالفونه في ذلك؛ فيروونه عن محمَّد بن علي بن الحسين مرسلاً، وهو يرويه عن علي ابن الحسين، عن أبي رافع، ولم يتابَع عليه، وهو كما وصفه الأئمَّة: سيِّء الحفظ، يُختلف عنه في الأسانيد، فمثله يحتاج إلى متابع ولا متابع، بل في الحديث اختلافٌ في الإسناد ونَكَارَة في المتن، واللَّه أعلم.

الحديث الثالث: عن ابن عبَّاس ؆:

ورد عن ابن عبَّاس من طريقين:

■ **الطَّريق الأوَّل:**

أخرجه ابن الأعرابي في «معجمه» (1680) قال: حدَّثنا سليمان بن أحمد بن ياسين، حدَّثنا محمَّد ابن عبد اللَّه المخرمي، حدَّثنا أحمد بن عُمر، حدَّثنا مسْلَمَة بن محمَّد الثَّقفي، عن يونس بن عُبيدة، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ **عقَّ عن الحسن كبشًا، وأمر برأسه فحلقه، وتصدَّق بوزن شعره فضَّةً، وكذلك الحسين أيضًا**».

كذا في «المعجم»: «يونس بن عبيدة»، والصَّواب هو يونس بن عبيد.

وهذا السَّند ضعيفٌ منكرٌ، فيه مسلمة بن محمَّد

الثَّقفي، ضعَّفه ابن مَعين، وقال ابن حجر فيه: «ليِّن الحديث».

وذكر الألبانيُّ هذا الحديث في «الإرواء» (4/ 380)، وضعَّفه بمسلمة بن محمَّد هذا، وغفل عن الرَّاوي عنه أحمد بن عمر، وهو القصبي، قال عنه أبو حاتم: «مجهول» كما في «الجرح والتَّعديل» (2/ 62).

○ وقد خُولف مسلمة بن محمَّد في متنه:

- أخرجه أبو داود في «السُّنن» (3/ 173) (2841)، وابن الجارود في «المنتقى» (911)، وغيرهما من طريق أيُّوب بن أبي تميمة السَّختياني.

- والنَّسائي في «السُّنن» (4219) وغيره من طريق قتادة.

كلاهما عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: «**أن رسول الله** أ **عقَّ عن الحسن والحسين كبشًا كبشًا**» لفظ أبي داود، وفي لفظ النَّسائي: «**كبشين كبشين**»، ولم يُذكر حلق الشَّعر والتَّصدُّق بوزنه فضَّةً، فهو منكرٌ من حديث عكرمة عن ابن عبَّاس؛ لتفرُّد مسلمة، وهو ضعيف، وعنه أَحمد بن عُمر القصبي وهو مجهول، والله أعلم.

■ الطَّريق الثاني:

أخرجه الطَّبراني في «المعجم الأوسط» (1/ 304) (558)، قال: حدَّثنا أحمد بن القاسم، قال: حدَّثنا أبي وعمِّي عيسى بن المساور، قالا حدَّثنا روَّاد بن الجراح، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: «**سبعة من السُّنَّة في الصَّبيِّ يوم السَّابع: يُسَمَّى، ويُختن، ويُماط عنه الأذى، وتُثقب أذنه، ويُعقُّ عنه، ويُحلق رأسه، ويُلطخ بدم عقيقته، ويُتصدَّق بوزن شعره في رأسه ذهبًا أو فضَّة**».

قال الطَّبراني: «لم يَرْوِ هذا الحديث عن عبد الملك إلاَّ رواد».

والحديث ذكره الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (11/ 717) (5432)، وقال: «منكرٌ بهذا التَّمام»، وأعلَّه برواد بن الجرَّاح، ونقل بعضَ أقوال أهل العلم في درجته، ومنهم من شدَّد تضعيفه كالدَّارقطني وغيره، وذكر بعضُ أهل العلم أنَّه روى مناكير لا يُتابع عليها، كالنَّسائي وابن عديٍّ والحاكم، انظر: «تهذيب الكمال» (9/ 227).

وقد روي - أيضًا - من قول عبد الله بن عمر È، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (8/ 178) من طريق عفَّان، قال: حدَّثنا عبد الوارث، قال: حدَّثنا عطاء بن السَّائب، عن محارب بن دثار، عن ابن عمر قال في العقيقة: «**تذبح عنه يوم السَّابع، ويُحلق رأسه، ويتصدَّق بوزن شعره فضَّة ويلطخ رأسه بالدَّم**».

لكن سنده ضعيف، فعطاء بن السَّائب اختلط، والرَّاوي عنه عبد الوارث بن سعيد روى عنه بعد اختلاطه كما في «الكواكب النَّيِّرات في معرفة من اختلط من الرُّواة الثِّقات» لابن الكيال (ص327).

* * *

وخلاصة الأمر أنَّ أصحَّ طرقِ هذا الحديث: ما رواه مالك في «الموطَّأ» عن ربيعة وجعفر بن محمَّد وتابعه غيره، ورواية ابن جريج وعمرو بن دينار أربعتهم، عن محمَّد بن علي بن الحسين مرسلاً.

وكلُّ الطُّرق الموصولة معلولةٌ ومُخْتَلَفٌ فيها، ولا يمكِّن تقوية حديث محمَّد بن علي بن الحسين من الطُّرق الرَّاجحة بها لاضطرابها وضعف رواتها، فلا يصحُّ الاستدلال به على وزن شعر الصَّبيِّ والتَّصدُّق به فضَّةً.

ويبقى الحديث على ضعفه وإرساله، والله تعالى أعلى وأعلم.

العدل.. حقيقته وأهميته

عبد الغني عوسات

الحمد لله العدل المبين، والصلاة والسلام على رسوله أعدل الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه الثِّقات العدول الَّذين يحكمون بالحقِّ وبه يعدلون، وعلى من اهتدى بهديه والتزم سنته وجعل العدل خلقه في الدنيا والدين، أما بعد:

فإن العدل نظام كل شيء وقوام كل أمر وميزان كل حكم، عليه قامت الأرض والسموات، وبه جاءت الشرائع والرسالات، فأنزل الله به كتبه، وبعث به رسله، وأمر به خلقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: 90]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25].

فما أنزل الله تعالى من كتاب إلا وجاء فيه الحث على العدل في ثنايا الخطاب، وما أرسل من رسول إلا أمر أمته بالعدل على سبيل الإيجاب، ولقد أمر الله تعالى به وحث عليه في كثير من آيات الكتاب لكون الدين يقوم عليه والدنيا تستقيم به، فيعد العدل أساس تشريع الأحكام وعمود مقاصدها وقوام كل التصرفات والمعاملات، وعماد كل المواقف والالتزامات سواء الحقوق منها والواجبات، وشامل ومستغرق لكل الظروف والحالات، وهو ضمان لأحسن المآلات، وذلك لأن انتظام حياة الناس جميعها منوط بقدر ما عندهم من العدل وما يحققونه منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»(1)، ولما كانت الأمة المحمدية آخر وخاتمة الأمم جعلها الله تعالى شاهدة على الناس كلهم وقيمة على الأمم جميعهم - تُبلِّغهم دين الله وتشهد لهم بالعدل والإيمان أو عليهم بالظلم والطغيان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143] كان العدل فيها قائما ودائما، وفي دعوتها ورسالتها عاما وتاما وهاما، ذلك لأن الله تعالى لم يكتف بإيجاب العدل على هذه الأمة وإنما أراد أن تجعله خلقا من أخلاقها أو صفة من صفاتها تمتاز وتتميز بها من دون الناس

فالعدل سائد فيها سريرة وسيرة، وقائد لها دعوة ومسيرة، لا تحابي فيه قريبا لقرابته ولا تضار عدوا لعداوته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [سورة النساء]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ

(1) «مجموع الفتاوى» (146/28).



قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

قال ابن جرير الطبري : : «يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري»[2].

فالعدل إذًا راسخ في هذه الأمة ثابت في حياتها، ودائم مستغرق لكل أحوالها، وهي قائمة عليه ومحكومة به ولا تتأخر عنه، ولو كان فيه مراغمة للعواطف: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: 8]، وكذلك تستديم وتستحب وجوبه ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف المودة والقرابة ـ السببية منها والنسبية ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ [النساء].

لم تعرف أمة العدل بهذه الصورة الصافية، ولم تقم به بهذه الصفة الشاملة الخالصة الصادقة إلا على يد الأمة المحمدية التي جعلها الله نبراسا للناس وهي خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: 110].

لم يكن العدل في حياة هذه الأمة مجرد صفة تتفاخر بها أو مثل تتظاهر بها أمام الأمم دون ممارسة أو تطبيق، ولكنه كان واقعا عاشته ومارسته بصدق والتزمت به وطبقته بحق وبهذا جعلها الله تعالى شاهدة وحجة على البشرية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: 143]، قال ابن كثير : : «شهادة أمة محمد ﷺ على جميع الأمم يوم القيامة برهان على عدالة هذه الأمة وشرفها»[3].

فالعدل مبدأ عظيم وميزان قويم في كل الشؤون والأحوال الخاصة والعامة، ولذلك جاء الأمر به والحث عليه والقيام والالتزام به في كل الأقوال والأفعال العقدية منها والتعبدية والحسية منها والمعنوية، القاصرة منها والمتعدية.

❊ ومن المواضع ـ مثلا ـ المطلوب فيها العدل من المكلف:

■ **العدل في حق الله تعالى:** ويتمثل في عبادته وحده لا شريك له وطاعته وعدم معصيته وشكره وعدم الكفر به، قال ابن تيمية : : «أصل العدل العدل في حق الله تعالى وهو عبادته وحده لا شريك له، فإن الشرك ظلم عظيم كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]»[4].

■ **وكذلك في العبادة:** مطلوب العدل وذلك بالوقوف عند الحد المشروع والقيام به على الوجه المشروع، وذلك بالاقتصاد في العبادات على ما ورد في السنة من غير غلو فيها ولا جفاء عنها، قال ابن تيمية : : «إن الشرع جاء بالعدل في كل شيء والإسراف في العبادات من الجور الذي نهى عنه الشارع، وأمر بالاقتصاد في العبادات... فالعدل في العبادات من أكبر مقاصد الشرع»[5].

■ **وكذلك الذي تولى أمر الحكم بين الناس ـ وعليهم ـ:** أن يتحلى بالعدل ويتجلى العدل في حكمه

(2) «جامع البيان» (95/10).

(3) «النهاية في الملاحم والفتن» (9/2).

(4) «الجواب الصحيح» (106/1).

(5) «مجموع الفتاوى» (250ـ249/25).

بتحريه له، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، وإن الأمر بالعدل في الأحكام شامل لجوانب كثيرة من الدين المرتبطة بالدعوة إلى الله والاحتساب والتوجيه والتعليم في الأمور الدقيقة أو الجليلة، الكبيرة أو الصغيرة، حتى الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط، فإن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يعدونه من الحكام.

■ **ومن المجالات والمواضع التي يطلب فيها العدل كذلك الدماء والأموال والأعراض:** وذلك أن العدل فيها هو الميزان بحق وتطبيقه بحق برهان الصدق، وذلك بمقابلة العادي بمثل فعله، وجزاؤه من جنس عمله.

قال ابن تيمية : «وأمر العالم في الشريعة مبني على هذا وهو العدل في الدماء والأموال والأبضاع والأنساب والأعراض، ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك ومقابلة العادي بمثل فعله»[6]، «ومن التصرفات والتجاوزات ما يستحق أن يكون الجزاء عليهما شديدًا سديدًا، ومنها ما يلزم فيه الرفق ويستحب فيه اللين، والخلاصة أن الشريعة الكاملة جاءت باللين في محله والشدة في محلها، فلا يجوز للمسلم أن يتجاهل ذلك، ولا يجوز - أيضا - أن يوضع اللين في محل الشدة ولا الشدة في محل اللين، ولا ينبغي أن ينسب إلى الشريعة أنها جاءت باللين فقط ولا أنها جاءت بالشدة فقط، بل هي شريعة حكيمة كاملة صالحة لكل زمان ومكان ولإصلاح جميع الأمة، ولذلك جاءت بالأمرين معا واتسمت بالعدل والحكمة والسماحة»[7].

◪ **وحتى لا يقع العبد في الظلم والبهتان والتجاوز والعدوان وهو يلتمس العدل والإحسان:** فلابد أن يكون العلم والفرقان مرآته العدل والميزان ومن علم

(6) «مجموع الفتاوى» (18/167).
(7) «فتاوى ابن باز» (3/204).

عمل به على حقيقته وصفته، أما الجاهل فلا يتصور منه العدل في قضية شرعية يجهلها، ولما كان العدل لابد أن يتقدمه العلم، إذ من لا يعلم لا يدري ما العدل، والناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف: العالم العادل، والجاهل، والظالم.

فالعدل مطلوب على وجه الوجوب في المكروه والمحبوب والعدول عنه ظلم وحوب فإنه واجب في الغضب والرضا والمنشط والمكره والسر والعلن ومع الغني والفقير والقوي والضعيف والصديق والعدو والقريب والغريب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8].

ومن كمال محبة الله ورسوله للعدل أنه أمر به الإنسان في كل شؤونه حتى في شأن نفسه وخاصة أمره حيث نهاه عن حلق بعض رأسه وترك بعضه؛ لأنه ظلم للرأس وذلك لما ترك بعضه كاسيا وبعضه عاريا[8]، وكذلك نهيه للعبد أن يجلس بين الشمس والظل[9]؛ فإنه ظلم لبعض بدنه، وكذا نظيره مشي الرجل في نعل واحدة، بل إما أن ينعلهما أو يحفيهما[10].

○○○

فهذه كلمات مختصرة في حقيقة العدل وأهميته في القول والفعل، وذكر بعض مواضعه على سبيل الذكر والمثال لا الحصر، فالله نسأل أن يرزقنا العدل في الأقوال والأعمال وسائر الأحوال.

(8) كما في حديث ابن عمر : أن النبي نهى عن القزع. أخرجه البخاري واللفظ له (5921) ومسلم (2120).
(9) عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم : «إذا كان أحدكم في الشمس - أي في الفيء - فقلص عنه الظل، وصار بعضه في الشمس وبعضه في الظل، فليقم». أخرجه أبوداود (4821)، ينظر: «صحيح الجامع» (748).
(10) عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة لينعلهما جميعا أو ليخلعهما جميعا». أخرجه البخاري (5855)، ومسلم (2097).

دروس وعبر

من هجرة خير البشر عليه الصلاة والسلام

عبد المجيد تالي
ليسانس في الشريعة الإسلامية. الجزائر

إن الناظر في الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة يستخلص دروسا وعبرا عدة، منها منهجية وأخرى سلوكية.

أولها: أن لا يَصْدُرَ المسلم في أمرٍ من أمور دينه أو دنياه إلا عن إذْنٍ من صاحب الشرع، وهذه قاعدة جليلة، وأصل عظيم لاَ بُدَّ منه لكل مسلم إن كان يريد أن يَحيَا حياةً سعيدةً في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم ؒ: «والعبد إذا عزم على فعل أمر، فعليه أن يعلم أوَّلاً هل هو طاعةٌ لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعةً فلا يَفْعَلْهُ إلاَّ أن يكون مباحا يَستعينُ به على الطاعة، وحينئذ يَصيرُ طاعةً، فإذا بَانَ له أنه طاعةٌ فلا يُقدِمْ عليه حتى يَنظُرَ هل هو مُعانٌ عليه أم لا؟ فإن لم يكن مُعَانًا عليه فلا يقدم عليه فيُذِل نفسَه، وإن كان معانا عليه بقي عليه نظرٌ آخر، وهو أن يأتيه من بابه، فإن أتاه من غيرِ بابه أضاعه أو فرَّط فيه أو أَفْسَدَ منه شيئًا، فهذه الأمورُ الثلاثة أَصْلُ سعادة العبد وفَلاحه»[1].

يتجلى ذلك في قول النبي ﷺ لأبي بكر ؓ: «عَلَى رِسْلِكَ[2]، فَإِنِّي أرجو أن يُؤْذَنَ لي»[3]، لَمَّا تَجهَّز أبو بكر ؓ قِبَلَ المدينة مهاجرًا.

▪▪▪

ثانيها: اتخاذ الأسبابِ، والتدابير العلمية المُبَلِّغة إلى المطلوب، والتوكّل على الله تعالى والثقة المطلقةُ به والاطمئنانُ لنصره، وعدم الاتّكال على الأسباب ذاتها.

قال أبو بكر ؓ: «يا نبي الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا»، قال: «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[4].

فالنبي ﷺ بدأ بتهيئة أمر الهجرة بعرضه نفسه على الوافدين إلى مكة وعقد بيعة العقبة الأولى والثانية، وأرسل مصعب بن عمير ؓ ليُعلِّمَهم ويهيِّء النُّفوس في المدينة لقدوم النبي ﷺ والمهاجرين.

وأمر بتجهيز الراحلة؛ فأعدَّ أبو بكر ؓ راحلتين وعَلَفَهما مدَّة كافية (أربعة أشهر) حتَّى تتحمَّلا مشقَّة السفر ووُعُورَةَ الطريق.

واختيار الدَّليل الخبير بالطريق... والخروج من بيته متقنِّعًا في وقت خلو الطرق من الناس... وسلوك طريقًا وَعْرَةً غير مألوفة للناس، وكلُّ ذلك تَعْمِيَةً للأمر وإنجاحًا للخطة.

وفي استخدامه ﷺ الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقل البشري في مثل هذا العمل ليس بسبب خوفه على نفسه، أو شك في إمكان وقوعه في قبضة المشركين، وإنما هذا تشريع للأمة ليتأسى الناس به، فيأخذوا بالأسباب في كل أعمالهم، وأن السبب إذا وجد وجد معه المُسَبَّب ما لم يُبْطِلِ الله ذلك كما فعل في

(1) «إعلام الموقعين» (3/433).
(2) بكسر الرَّاء وسكون السِّين المهملة أي: على مهلك، والرِّسل: السير الرفيق، أفاده في «الفتح».
(3) البخاري (3905).
(4) البخاري (3922).

جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم o .

فَشَرْعُ الله y قائمٌ في هذه الدنيا على مقتضى الأسباب والمسببات وإن كان الواقع الذي لا شك فيه هو أن الله تعالى مسببه ومريده.

لذا قيل: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا تغيير في وجه العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع»[5].

■ ■ ■

ثالثها: حرص المؤمن على مصاحبة الصالحين والجلوس معهم، والسفر رفقتهم، لأنهم أصحاب الخير وأرباب النصح الذين لا يبخلون بأنفسهم في سبيل دعوتهم، وحماية دعاتهم.

لذا قال أبو بكر Ç للرسول أ : «الصَحَابة بأبي أنت يا رسول الله»[6].

■ ■ ■

رابعها: الرغبة في المبادرة إلى الخير وعدم الاعتماد على الآخرين في ذلك، فالرسول أ أبى أن يركب راحلة ليست له حتى اشتراها من أبي بكر بالثمن، حتى تكون هجرته بماله ونفسه رغبةً في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتمّ أحوالهما.

وهذا درس واضح لحملة الدعوة إلى الله وما ينبغي أن يكونوا عليه من التعفف، إذ اليد العليا خير من اليد السفلى.

فحملة الدعوة والعقيدة والإيمان لا ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد غير الله؛ لأن هذا يتناقض مع ما يدعون إليه.

■ ■ ■

خامسها: إخلاص العمل لله الواحد الأحد.

يتجلى ذلك فيما رواه عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري من أنه سمع رسول الله على الحَزْوَرَة[7] في سوق مكة فقال: **والله إنَّك لَخَيْر أَرْض الله، وَأَحَبّ أَرْض الله إِلَى الله** y ، **وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْك مَا خَرَجْتُ**»[8]، وهذا أمر طبيعي، فيها نشأ أ وترعرع، وفيها نزل عليه أ الوحي، ولكن رغم ذلك لم يستكن إلى حبها وفضَّل حبَّ الله y ورضاه.

■ ■ ■

سادسها: أَمْنُ الدِّين هو الأصل عند المسلم، فإن وجد عليه خطرًا دفع كل غال ونفيس حمايةً لدينه، ولهذا خرج أبو بكر مهاجرًا تاركًا كل شيء خلف ظهره يطلب الأمان لدينه ودعوته.

■ ■ ■

سابعها: بلد المسلم ووطنه هو الذي يتمكن فيه من إظهار دينه ودعوته فيه، ولهذا خرج أبو بكر Ç على الرغم من أفضليّة بلده على سائر البلدان.

فعلى المسلم أن لا يركن إلى الذلِّ والهوان بل يعمل تفكيره في الخروج من الحصار المضروب على دينه ودعوته، ويبحث عن موطن موافق أو مسالم لها، حتى يتمكَّن من تحقيق عبوديَّته لله تعالى.

■ ■ ■

ثامنها: الاستفادة من خِبْرات وطاقات المجتمع وتوظيفها في المجالات المناسبة، فعبد الله بن أبي بكر للأخبار، وعامر بن فُهَيْرَة للشراب، وأسماء وعائشة لتجهيز الطعام وهكذا.

■ ■ ■

تاسعها: الاستفادة من خبرات المشركين إذا أُمِنَ حَالهُم، ولم يكن لهم شَوْكَةٌ في التأثير على القرار، وعرفوا واشْتُهِرُوا بما يراد منهم، ولم يكن أحدٌ من المسلمين يسدّ هذه الوظيفة، وكانت عاداتُهم وتقاليدُهم

(5) «منهاج السنة النبوية» (5/366).
(6) البخاري (3905).

(7) موضع بمكة عِنْدَ باب الحنّاطِين وهو بوزن قَسْوَرة.
(8) رواه أحمد (18715).



تَفْرِضُ عليهم الأَمَانَةَ في أداء تلك المهمّة.

■ ■ ■

عاشرها: تَربيةُ المؤمِنِ لأسرته على الأمانة وإحاطة الإسلام وحفظه وبذل ما يملكون في سبيل ذلك.

يتجلى ذلك في قول أبي بكر Ç لما أمره النبي أ بإخراج من عنده: «لا عين عليك»، «إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله»[9].

■ ■ ■

الحادية عشر: مشاركة المرأة في الدعوة إلى الله.

يتجلى ذلك من خلال الدور الذي قامت به عائشة وأختها أسماء È حيث كانتا نِعْمَ النَّاصر والمُعِين في أمر الهجرة؛ فلم تَخْذُلاَ أباهما أبا بكر Ç مع علمهما بخطر المغامرة، ولم تُفْشِيَا سرّ الرِّحْلة لأحد، ولم تَتَوَانَيَا في تجهيز الراحلة تجهيزًا كاملاً، إلى غير ذلك مما قامتا به.

■ ■ ■

الثانية عشر: ثَباتُ أَهلِ الإيمانِ في المواقف الحرجة.

يتجلى ذلك في جواب النبي أ لأبي بكر Ç لمّا كانا في الغار، قال أبو بكر Ç: يا رسول الله لو أن أحدَهم رفع قدمه رآنا، فأجابه النبيُ أ مُطَمْئِنًا له: «**مَا ظَنُّك باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهما**»[10].

فالثقة بالله، والاتكال عليه عند الشدائد، واليقين بأنَّ الله لن يتخلَّى عن عبده في السَّاعات الحرجة، هو حال أهل الإيمان، بخلاف أهل الكذب والنِّفاق؛ فهم سرعان ما يتهاوون عند المخاوف وينهارون عند الشَّدائد.

■ ■ ■

الثَّالثة عشر: الثِّقة بالله في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

ونرى ذلك حينما خرج أ من مكَّة مكرهًا فلم يجزع، ولم يذل، ولم يفقد ثقته بربِّه، ولَمَّا نصره الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالإسلام وظهور المسلمين لم يزده زهوًا وغرورًا؛ فأخلاقه يوم أخرج من مكَّة كارهًا كأخلاقه يوم دخلها فاتحًا ظافرًا، وعيشته يوم كان في مكَّة يلاقي الأذى من سفهاء الأحلام كعيشته يوم أطلَّت رايته البلاد العربيَّة، وأطلَّت على ممالك قيصر ناحية تبوك.

■ ■ ■

الرَّابعة عشر: إِبْرَازُ دَورِ الشَّباب المسلم في خدمة الدَّعوة والدِّين، وتَحْقِيقِ مَبادِئِ الإسلام وإِقامَةِ المُجتَمعِ المسلم.

يتجلَّى ذلك في الدَّور الَّذي كان يؤدِّيه كلٌّ من عبد الله بن أبي بكر È، من تَحَسُّسِ الأخبار من قريش وإبلاغِ النَّبيِّ أ وأبيه بها، وأختيه أسماء وعائشة È من الجدِّ في تهيئ الزَّاد والرَّاحلة.

■ ■ ■

الخامسة عشر: إبراز مَبْدَإِ التَّضْحيةِ بالمال والأرض في سبيل العقيدة والدِّين عندما يقتضي الأمر، فبذلك يَضْمَنُ المسلمون لأنفسهم المال والوطن والحياة، وإنْ بدا لأوَّل وَهْلَةٍ أنَّهم تَعَرَّوْا عن كلِّ ذلك وفَقَدُوهُ.

■ ■ ■

السَّادسة عشر: الاسْتِمْرَارُ في الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى حتَّى في أَحْلَك الظُّروف.

فالدَّاعي الصَّادقُ في دعوته، المُوقِنُ بما يَدْعُو إليه لا تَفْتُرُ هِمَّتُه في الدَّعوة، ونَشْرِ الخير بين النَّاس، وإيصاله إلى قلوبهم مهما كانت الظُّروفُ قاسيَةً والأَحوَالُ مُضْطَربَةً، والأَمنُ مَفقُودًا، بل يَنتَهِزُ كُلَّ فُرصَةٍ مُناسِبَةٍ لتبليغ دَعوَةِ الله تعالى.

وهذه الحالُ في الحقيقة هي سُنَّةُ ومَنهَجُ الأنبياءِ والمرسلين، وكفى بها سُنةً ومَنهَجًا.

■ ■ ■

(9) أخرجه موسى بن عقبة في مغازيه على ما أشار إليه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (679/8)، والعيني في «عمدة القاري» (59/17)، وهو عند البخاري (3905) دون قوله: «لا عين عليك».

(10) البخاري (4663).

السَّابعة عشر: مَنْ تَرَكَ شَيئًا للّه عَوَّضَهُ اللّه خيرًا منه.

فلمَّا ترك المهاجرون ديارَهم، وأهليهم، وأموالَهم الَّتي هي من أَحبِّ الأشياء إليهم، لَمَّا تركوا ذلك كلَّه للّه، أَعَاضَهم اللّه بأن فتح عليهم الدُّنيا، ومَلَّكهم شرقَها وغربَها.

■ ■ ■

الثَّامنة عشر: يُوقِنُ المؤمنُ أنَّ المستقبل لهذا الدِّين مهما اشتدَّت الظُّلْمَةُ أو تَنَاقَصَ الأنصار؛ لأنَّ اللّه نَاصِرُ دينه ومُذِلُّ أعدائه في كلِّ زمن وحين إذا تَحَقَّقَ الإيمانُ وَتَوَفَّرَتْ شُروطُ النَّصر، فالعاقِبَةُ دَوْمًا للتَّقوى وللمتَّقين، سُنَّةٌ ماضيَةٌ في دُنْيَا النَّاسِ.

■ ■ ■

التَّاسعة عشر: الحَفاوَةُ بالدَّعوة وحامليها.

يتجلَّى ذلك في فرحة المؤمنين من أنصار ومهاجرين بقدوم رسول اللّه تعالى أ ووصوله إليهم سالمًا، وخروجهم لاستقباله.

فيستفادُ من ذلك مَشْرُوعِيَّةُ اسْتِقبالِ العلماءِ والأمراء، عند مَقْدَمِهم بالحفاوة والإكرام.

■ ■ ■

العشرون: الهجرة والإصلاح المنشود.

قال العلاَّمة محبُّ الدِّين الخطيب: «لو أنَّنا فهمنا الحكمة الَّتي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أنَّ كتاب اللّه الَّذي نتلوه قد أنحى باللاَّئمَة على جماعة من أصحاب رسول اللّه أ كانوا في مكَّة يصلُّون ويصومون، ولكنَّهم ارْتَضَوْا البقاءَ تحتَ جناح أنظمة تُخالِفُ الإسلامَ، فلا قُوَّةَ لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنوده، لعلمنا أنَّ الإسلام لا يكتفي من أهله بالصَّلاة والصَّوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يُقيمُوا شرائعَه وآدابَه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم، ومجامعهم ودَوَاوِينِ حُكمِهم، وأنَّ عليهم أنْ يتوسَّلوا بجميع الوسائلِ المشروعة لتحقيق هذا الغرض الإسلامي بَادئِينَ به من البيت وملاحظين ذلك في تربية مَنْ تَحتَ أمانَتِهم من بَنِينَ وبنات، ومُتَعاونِينَ عليه مع مَنْ يَنْشُدُ للإسلام الرِّفْعَةَ والازْدِهارَ مِنْ إخوانهم، حتَّى إذا عمَّ هذا الإِصْلاَحُ أَرْجاءً واسعةً تَلاَشَتْ تحت أَشِعَّته ظُلماتُ الباطِلِ، فكان لهذا الأُسلوب من أساليب الهجرة مثل هذه الآثار الَّتي كانت لهجرة النَّبيِّ أ وأصحابه الأولين.

روى مسلم في كتاب الإمارة من «صحيحه» عن أبي عثمان النَّهْدي أن مُجاشِعَ بن مسعود السُّلَمي قال: جئت بأخي أبي مَعْبَدٍ إلى رسول اللّه أ بعد الفتح فقلت: يا رسول اللّه! بايعه على الهجرة، فقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**قَدْ مَضَتِ الهِجْرَة بِأَهْلِهَا**»، قال مجاشع: فبأيِّ شيء تبايعه؟ قال: على الإسلام والجهاد والخير، قال أبو عثمان النَّهدي: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع، فقال: صدق.

وفي كتب السُّنَّة وبعضه في «الصَّحيحين» عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد ابن ناقد الأنصاري أنَّ النَّبيَّ أ قال: «**المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَات**»، **فإلى الهجرة أيُّها المسلمون، إلى هجر الخطايا والذُّنوب، إلى هجر ما يُخالِفُ تعاليمَ الإسلام في بُيُوتنا، وما نَقومُ به مِنْ أَعمالنَا، إلى هجر الضَّعْف والبطالَة والإهمال والتَّرَف والكَذب والرِّياء وَوَضْع الأشياء في غَيْر مَوْضعها**»[11].

■ ■ ■

وأخيرًا ـ أيُّها القارئ الكريم ـ هذه بعض الفوائد والدُّروس انتخبتها لك من هجرة نبيِّنا أ وصحابته الكرام أ عَلَّك تستفيد منها في حياتك، نفعني اللّه الكريم وإيَّاك بها، آمين والحمد للّه ربِّ العالمين.

(11) من إلهامات الهجرة ضمن «مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث» (2/362).



قُرب الرَّبِّ ـ جل وعلا ـ من داعيه

حسن آيت علجت

إنَّ الدُّعَاءَ مِنَ العبَادَات العَظيمَة الَّتي شَرعَهَا اللّهُ y لعبَادِه، وبَيَّنَ رسُولُه ا كَيْفيَّتَها وتَفاصيلها بَيَانًا شَافيًا.

وقد صَنَّف العُلَمَاءُ ـ قديمًا وحديثًا ـ في ذلك تَصانيفَ كَثيرةً ذكَرُوا فيها كُلَّ ما يَتعلَّقُ بالدُّعاء منْ فضائله وآدابه وشُروط إجَابَته ومَوَانعهَا وبَيَان الدَّعَوات المُسْتَجَابة والدَّعوات المَنْهيِّ عَنْهَا وغيْرها منَ الأُمُور الَّتي لَهَا صلَةٌ بهذه العبَادَة العَظيمَة.

❊ ومِنَ الفَضَائلِ الجَليلَة للدُّعَاءِ: قُرْبُ الرَّبِ y منْ دَاعِيه.

وهذه المَسْأَلَةُ من المَسَائلِ الَّتي شَمَّرَ لها العَابدُون، واجْتَهَدَ في تَحْصيلها الصَّالحُون.

◻ وقَدْ جَاءَ تَأْصِيلُ هذه المَسْأَلَة في كِتَاب اللّه تعالى وسنَّة رَسُوله ا .

◎ فقد قال اللّه y في مُحْكَم التَّنْزيل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

● قال الإمامُ الطَّبَريُّ في «تفسيره» (3/480): «يَعْني ـ تعالى ذكْرُه ـ بذَلكَ: وإذَا سَأَلَكَ ـ يا مُحمَّدُ ـ عبَادي عَنِّي أيْنَ أنَا؟ فَإنِّي قَريبٌ منْهُمْ، أَسْمَعُ دُعَاءَهُم، وأُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعي منْهُم» اهـ.

◎ ومنْ بَابَته قَوْلُ اللّه تعالى حكايةً عَنْ نَبيِّه صَالحٍ؛ وهو يُخَاطب قَوْمَهُ ثَمُودَ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [سُورَةُ هُود].

● قال البَغَويُّ في «تفسيره» (4/185): «﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ منَ المُؤْمنينَ، ﴿مُّجِيبٌ﴾ لدُعَائهمْ» اهـ.

◎ ومن ذلك ـ أيْضًا ـ قوْلُ اللّه y : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ سَبَإ].

● قال ابْنُ كثير في «تفسيره» (6/527): «وقوْلُه: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أيْ: سَميعٌ لأَقْوَال عبَاده، قَريبٌ مُجيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعي إذَا دَعَاه» اهـ.

◻ أمَّا في السُّنَّة المُطَهَّرة، فقَدْ جَاءَ ذكْرُ هذه المسألَة ـ أيْ قُرْبُ الرَّبِّ y منْ دَاعيه ـ في حَديث أَبي مُوسَى الأَشْعَريِّ Ç قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّه ا في غَزَاة؛ فَجَعَلْنَا لاَ نَصْعَدُ شَرَفًا، ولاَ نَعْلُو شَرَفًا، ولاَ نَهْبطُ في وَاد؛ إلاَّ رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بالتَّكْبير، قَالَ: فَدَنَا منَّا رَسُولُ اللّه ا ، فقَالَ: «**أيُّهَا النَّاسُ! ارْبعُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ؛ فَإنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولاَ غَائبًا؛ إنَّمَا تَدْعُونَ سَميعًا بَصيرًا؛ إنَّ الَّذي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إلى أَحَدكُمْ منْ عُنُق رَاحلَته**»[1].

● قال الإمامُ ابْنُ القيِّم : في مَعْرض كَلامه على هَذَا الحَديث في كتابه «طَريقُ الهِجْرَتَيْن» (ص 45):

(1) صحيح: رواه أحمد (19599) واللَّفْظُ له، والبخاري (6610)، ومسلم (2704).

«فَهَذَا قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيه وذَاكره؛ يَعْني: فَأيُّ حَاجة بكُمْ إلى رَفْع الأَصْوَات وهُوَ لقُرْبه يَسْمَعُهَا وَإنْ خُفضَتْ، كَمَا يَسْمَعُهَا إذَا رُفعَتْ؛ فَإنَّه سَميعٌ قَريبٌ؟!» اهـ.

❊ وقَدْ جاءَ في السُّنَّة أنَّ هذا القُرْبَ الخاصَّ بالدَّاعين يَكُونُ في أحْوَالٍ مَخْصُوصَةٍ ومَوَاطنَ مُخْتَلفَة، منْها:

◪ **حَالُ السُّجُود:** وذلك لمَا رَوَى الإمامُ مُسْلمٌ في «صحيحه» (482) عَنْ أبي هُرَيْرَة ç أَنَّ رَسُولَ اللَّه ê قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ منْ رَبِّه وهُوَ سَاجدٌ، فَأَكْثرُوا الدُّعَاءَ**».

وفي هذا المَعْنَى جَاءَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [سُورَةُ العَلَق].

منْ أَجْل ذَلكَ أَرْشَدَ النَّبيُّ ê المُصَلِّيَ إلى الاجْتهَاد في الدُّعَاء حَالَ السُّجُود؛ لأنَّهُ أحْرَى وأَوْلَى بالإجَابة والقَبُول، فقد روى الإمامُ مسلمٌ في «صحيحه» (479) عَنْ ابْن عبَّاس ç عن النَّبيِّ ê قَالَ ê: «...**ألاَ وَإنِّي نُهيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكعًا أوْ سَاجدًا؛ فَأمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ** y، **وَأمَّا السُّجُودُ فَاجْتهَدُوا في الدُّعَاء؛ فَقَمنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**».

ومنْ دُرَر كلام شَيْخ الإسلام ابْن تَيْميَّة ما ذَكَرَهُ تَعْليلاً لكَوْن السُّجُود وَسيلَةً للقُرْب منَ الرَّبِّ - جَلَّ وعلا -؛ حيْثُ قال في «المجموع» (5/237 - 238):

«فَلَمَّا كَانَ السُّجُودُ غَايَةَ سُفُول العَبْد وَخُضُوعه؛ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّه الأَعْلَى؛ فَهُوَ - سُبْحَانَهُ - الأَعْلَى، وَالعَبْدُ الأَسْفَلُ؛ كَمَا أنَّهُ الرَّبُّ، وَالعَبْدُ العَبْدُ، وَهُوَ الغَنيُّ، وَالعَبْدُ الفَقيرُ، وَلَيْسَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالعَبْد إلاَّ مَحْضُ العُبُوديَّة؛ فَكُلَّمَا كَمَّلَهَا قَرُبَ العَبْدُ إلَيْه؛ لأنَّهُ - سُبْحَانَهُ - بَرٌّ جَوَادٌ مُحْسنٌ يُعْطي العَبْدَ مَا يُنَاسبُهُ؛ فَكُلَّمَا عَظُمَ فَقْرُهُ إلَيْه كَانَ أَغْنَى، وَكُلَّمَا عَظُمَ ذُلُّهُ لَهُ كَانَ أَعَزَّ؛ فَإنَّ النَّفْسَ - لمَا فيهَا منْ أَهْوَائهَا المُتَنَوِّعَة، وَتَسْويل الشَّيْطَان لَهَا - تَبْعُدُ عَن اللَّه؛ حَتَّى تَصيرَ مَلْعُونَةً بَعيدَةً منَ الرَّحْمَة، وَاللَّعْنَةُ هيَ البُعْدُ، وَمنْ أَعْظَم ذُنُوبهَا إرَادَةُ العُلُوِّ في الأَرْض، وَالسُّجُودُ فيه غَايَةُ سُفُولهَا» اهـ.

ومنْ حَالاَت قُرْب الرَّبِّ y منْ دَاعيه:

◪ **الدُّعَاءُ في جَوْف اللَّيْل الآخر:** فَعَنْ عَمْرو ابن عَبَسَةَ ç أَنَّهُ سَمعَ النَّبيَّ ê يَقُولُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ منَ العَبْد في جَوْف اللَّيْل الآخر، فَإن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ ممَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ في تلْكَ السَّاعَة فَكُنْ**»(2).

وهذا المَوْطنُ هو منْ مَوَاطن إجَابَة الدُّعَاء كما جَاءَ ذلك في حديث أَبي أُمَامَةَ البَاهليِّ ç قَالَ: قيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه! أيُّ الدُّعَاء أَسْمَعُ؟ قَالَ: «**جَوْفَ اللَّيْل الآخر، وَدُبُرَ الصَّلَوَات المَكْتُوبَات**»(3).

وفي ذلك - أيْضًا - جاءَ الحَديثُ الَّذي يَرْويه الإمامُ مُسْلمٌ في «صحيحه» (757) عَنْ جَابر بن عبْد اللَّه ç قَالَ: سَمعْتُ النَّبيَّ ê يَقُولُ: «**إنَّ في اللَّيْل لَسَاعَةً لاَ يُوَافقُهَا رَجُلٌ مُسْلمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا منْ أَمْر الدُّنْيَا وَالآخرَة؛ إلاَّ أَعْطَاهُ إيَّاهُ، وَذَلكَ كُلَّ لَيْلَة**».

وقد مدَحَ اللَّهُ - تعالى - المُسْتَيْقظين بالليْل لدُعَاء اللَّه y وسُؤاله؛ فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السَّجدَة: 16].

وقُرْبُ الربِّ y منْ دَاعيه في هذا الوَقْت المُبَارَك يُنَاسبُ أمْرًا عَظيمًا أَخْبَرَ به النَّبيُّ ê في مَا اسْتَفَاضَ عَنْهُ في «الصَّحيحَيْن» و«السُّنَن» و«المَسَانيد» عَنْ أبي هُرَيْرَة ç أَنَّ نَبيَّ اللَّه ê قَالَ: «**يَنْزلُ رَبُّنَا - تَبارَك وَتعَالَى - كُلَّ لَيْلَة إلَى السَّمَاء الدُّنْيَا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْل الآخرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَسْتَجيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطيَه، وَمَنْ يَسْتَغْفرُني فَأَغْفرَ لَهُ**».

ولهذا قال شَيْخُ الإسلام ابْنُ تيمية في «مجموع

(2) صحيح: رواه الترمذي والنسائي، انظر: «صحيح الترغيب» (1647).
(3) صحيح: رواه الترمذي والنَّسائي، انظر: «صحيح الترغيب» (1648).



فتاواه» (241/5) مُبَيِّنًا سرَّ إجَابَة الدُّعَاء في جَوْف اللَّيْل: «وَالنَّاسُ في آخر اللَّيْل يَكُونُ في قُلُوبهمْ منَ التَّوَجُّه وَالتَّقَرُّب وَالرِّقَّة مَا لا يُوجَدُ في غَيْر ذَلك الوَقْت، وَهَذَا مُنَاسبٌ لنُزُوله إلى السَّمَاء الدُّنْيَا، وَقَوْله: «هَلْ منْ دَاعٍ، هَلْ منْ سَائلٍ، هَلْ منْ تَائبٍ» اهـ.

ومنْ حَالاَت قُرْب الربِّ ﷻ من دَاعيه:

◪ الدُّعاءُ في يَوْم عَرفَةَ: ففي هذا اليَوْم الأَغرِّ - وهو من أعْظَم أيَّام الحَجِّ - يَدْنُو اللهُ - جَلَّ وعَلاَ - منْ عبَاده منْ أهْلِ المَوْقف، ويُبَاهي الملائكَةَ الكرَامَ بالحَجيج.

فقَدْ رَوى مسلمٌ في «صحيحه» (1348) عَنْ عَائشَةَ أمِّ المُؤْمنينَ ▲ أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «**مَا منْ يَوْمٍ أكْثَرَ منْ أنْ يُعْتقَ اللهُ فيه عَبْدًا منَ النَّار منْ يَوْم عَرفَةَ، وَإنَّه لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهي بهمُ المَلائكَةَ فَيقُولُ: مَا أرَادَ هَؤُلاء**».

وهذا القُرْبُ الإلَهيُّ منْ أهْل المَوْقف يُناسبُ الحَالَ الَّتي هُمْ عَلَيْهَا منَ الدُّعَاء والتَّضرُّع والانْكسار والانْطرَاح بَيْنَ يَدَي الله ﷻ.

ذلك بأنَّ الدُّعَاءَ في هذا اليَوْم هو خَيْرُ الدُّعَاء؛ وذلك لمَا رَوَى عَمْرُو بنُ شُعَيْب عَنْ أبيه عَنْ جَدِّه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ الدُّعَاء دُعَاءُ يَوْم عَرفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أنَا وَالنَّبيُّونَ منْ قَبْلي: لا إلهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**»(4).

فَتَبيَّنَ - حينئذ - منْ خلاَل هذه المَوَاطن الثَّلاثَة مُنَاسَبَةُ قُرْب الرَّبِّ ﷻ منْ عَبْده المُؤْمن لكَوْنه في حَال الدُّعَاء والتَّضَرُّع لله تعالى.

❊ وممَّا يَجْدُرُ التَّنبيهُ عَلَيْه: أنَّ هذا القُرْبَ المَذْكُورَ هو قُرْبٌ عَارضٌ خَاصٌّ بدَاعيه وعَابديه - جل وعَلاَ -، وهو قُرْبٌ يقْتَضي إجابَةَ دَاعيه، وإثَابَةَ عَابديه - سبحانه وتعالى -.

وهناك قُرْبٌ آخَرُ وهو القُرْبُ اللاَّزمُ العَامُّ الَّذي يَشْمَلُ البَرَّ والفاجرَ والمُؤْمنَ والكَافرَ، ويَقْتَضي العلْمَ والقُدْرَةَ.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي ♫ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [سورة هود] من «تفسيره» (ص 340 - ط/مؤسسة الرِّسالة):

«واعْلَمْ أنَّ قُرْبَهُ - تعالى - نَوْعَان: عَامٌّ، وخَاصٌّ: فالقُرْبُ العَامُّ: قُرْبُهُ بعلمه منْ جَميع الخَلْق، وهو المَذْكُورُ في قَوْله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [سورة ق].

والقُرْبُ الخَاصُّ: قُرْبُهُ منْ عَابديه وسَائليه ومُحبِّيه، وهُوَ المَذْكُورُ في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾ [سورة العلق]، وفي هذه الآية، وفي قَوْله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [سورة البقرة].

وهذا النَّوْعُ قُرْبٌ يَقْتَضي إلطَافَهُ - تعالى - [بعبَاده]، وإجَابَتَهُ لدَعَوَاتهم، وتَحْقيقَهُ لمُرَادَاتهم؛ ولهَذَا يُقْرَنُ باسْمه «القَريبُ» اسْمُهُ «المُجيبُ»» اهـ.

وهناك فَرْقٌ آخَرُ بَيْنَ القُرْب العَامِّ والقُرْب الخَاصِّ منْ حَيْثُ الصِّيغَة؛ فالقُرْبُ الخَاصُّ يَأْتي بصيغَة المُفْرَد، بخلاَف القُرْب العامِّ فإنَّه يأتي بصيغة الجَمْع، وهَذه الصِّيغَةُ في كَلاَم العَرَب للْوَاحد العَظيم الَّذي لَهُ جُنُودٌ يُطيعُونَهُ؛ فَإذَا فَعَلَ مَنْ تَحْتَ يَده وَطَوْعَ أَمْره من الجُنود فعْلاً بأَمْره، قَالَ: نَحْنُ فَعَلْنَا.

ومثَالُ ذلك قَوْلُ الله - تبارك وتعالى - في المُحْتَضَر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [سورة الواقعة]؛ والمقصود به ما يفعله - سبحانه - بجنوده من الملائكة

(4) **حسن**: رواه الترمذي. انظر: «صحيح الترغيب» (1536).



أ ، فالَّذي يقرب من المحتضر - سواء كان برًّا أو فاجرًا - هم الملائكة الموكَّلون بقبض روحه.

وكذلك قولُه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ قٓ]؛ المقصُودُ به هو قُربُ الملائكة - وهُمُ الكِرامُ الكاتبُون - من العَبْد، وهذا بدليل قوْل الله تعالى عقبَ ذلك: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

وفي هذا الصَّدد قَالَ ابْنُ تيمية في «المجموع» (5/128 - 129): «وأمَّا القُرْبُ فذكَرَهُ تارَةً بصيغة المُفْرَد كقَوْله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، وفي الحَديث: «ارْبعُوا على أنْفسكُمْ»؛ إلى قال: «**إنَّ الَّذي تدْعُون أقْربُ إلى أحدكمْ منْ عُنق راحلته**».

وَتَارَةً بصيغة الجَمْع كقَوْله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ قٓ]، وَهَذَا مثْل قوْله: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ [القَصَص: 3]، و﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يُوسُف: 3]، و﴿عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ القِيَامَة]، و﴿عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [سُورَةُ القِيَامَة]؛ فَالقرَاءَةُ هُنَا حينَ يَسْمَعُهُ منْ جبْريل، وَالبَيَانُ هُنا بَيانُهُ لمَنْ يبْلُغُهُ القُرْآنُ.

وَمَذْهَبُ سَلَف الأمَّة وَأئمَّتها وَخلَفها أنَّ النَّبيَّ y سَمِعَ القُرْآنَ منْ جبْريل، وَجبْريلُ سمعَهُ منَ اللَّه أ.

وَأمَّا قَوْلُهُ: ﴿نَتْلُوا۟﴾، ﴿نَقُصُّ﴾، وَنَحْوُهُ؛ فَهذه الصِّيغَةُ في كَلامِ العَرب للْواحد العَظيم الَّذي لَهُ أعْوَانٌ يُطيعُونَهُ؛ فَإذَا فعَلَ أعْوَانُهُ فعْلاً بأمْره قَالَ: نَحْنُ فعَلْنَا؛ كَمَا يَقُولُ المَلكُ: نَحْنُ فَتَحْنَا هَذَا البَلَد، وَهُوَ منَّا هَذا الجَيْشُ، وَنَحْوُ ذَلكَ.

وَمنْ هَذَا البَابِ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزُّمَر: 42]؛ فَإنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَتَوفَّاهَا برُسُله الَّذينَ مُقدَّمُهُمْ مَلَكُ المَوْت؛ كَمَا قَالَ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأَنْعَام: 61]، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَة: 11]؛ وَكَذَلكَ ذَوَاتُ المَلائكة تقْرُبُ منَ المُحْتَضَر.

وَقوْلُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ قٓ]؛ فَإنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتعَالَى - هُوَ وَمَلائكتُهُ يَعْلَمُونَ مَا تُوَسْوسُ به نَفْسُ العَبْد منْ حَسَنَة وَسَيِّئَة، وَالهَمَّ في النَّفْس قَبْلَ العَمَل.

فَقوْلُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾؛ هُوَ قُرْبُ ذَوَات المَلائكَة، وَقُرْبُ علْم اللَّه؛ فَذوَاتُهُمْ أقْرَبُ إلى قَلْب العَبْد منْ حَبْل الوَريد، فَيَجُوزُ أنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ أقْرَبَ إلى بَعْضه منْ بَعْض؛ وَلهَذَا قَالَ في تَمَام الآيَة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، فَقوْلُهُ: ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ؛ فَأخْبَرَ أنَّهُمْ أقْرَبُ إلَيْه منْ حَبْل الوَريد حينَ يَتَلقَّى المُتَلقِّيَانِ مَا يَقُولُ، فَهَذَا كُلُّهُ خَبَرٌ عَن المَلائكَة..

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، وَ«**هُوَ أقْرَبُ إلى أحَدكُمْ منْ عُنُق رَاحلته**»؛ هَذَا إنَّمَا جَاءَ في الدُّعَاء، لَمْ يَذْكُرْ أنَّهُ قَريبٌ منَ العبَاد في كُلِّ حَال؛ وَإنَّمَا ذَكَرَ ذَلكَ في بَعْض الأحْوَال كمَا في الحَديث: «**أقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ منْ رَبِّه وَهُوَ سَاجدٌ**»، وَنَحْوُ ذَلكَ» اهـ.

وقال في نَفْس المَصْدَر (5/494): «وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سُورَةُ الوَاقِعَة]؛ فَالمُرَادُ به قُرْبُهُ إلَيْه بالمَلائكَة، وَهَذَا هُوَ المَعْرُوفُ عَن المُفَسِّرينَ المُتَقَدِّمينَ من السَّلَف، قَالُوا: مَلَكُ المَوْت أدْنَى إلَيْه منْ أهْله وَلَكنْ لا تُبْصرُونَ المَلائكَة.

وَقَدْ قَالَ طَائفَةٌ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بالعلْم، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بالعلْم وَالقُدْرَة، وَلَفْظُ بَعْضهمْ: بالقُدْرَة وَالرُّؤْيَة، وهذه الأقوال ضعيفة» اهـ.

إذا تَقَرَّرَ هذا فَإنَّه يَتَعَيَّنُ عَلَى المُؤْمن أنْ يَصُونَ هَذه النُّصُوصَ المُتَضَافرَة الوَاردَة في هَذه المَسْألَة الجَليلَة الشَّأن منَ الظُّنُون الكَاذبَة والأوْهَام الفَاسدَة،



كَمَا نَبَّهَ على هذا الحافظُ ابْنُ رَجَب : حَيْثُ قال في «جامِع العُلُوم والحِكَم» (ص37) بَعْدَ أَنْ سَاقَ طَائِفَةً مِنَ النُّصُوص المَذْكورَة آنفًا:

«وَمَنْ فَهِمَ شيْئًا مِنْ هَذه النُّصُوص تَشْبِيهًا أَوْ حُلولاً أَوْ اتِّحَادًا، فَإنَّمَا أُتيَ مِنْ جَهْلِه وسُوءِ فَهْمِه عَنِ اللهِ y وعَنْ رسُولِه أ ، واللهُ ورَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّه.

فسُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» اهـ.

ونَبَّهَ على هذا ـ أيضًا ـ الإمامُ ابْنُ القيِّم : في «مَدارِج السَّالكِين» (266/2) فقال: «فَهَذَا قُرْبٌ خَاصٌّ بِالدَّاعِي دُعَاءَ العِبَادَة والثَّنَاء والحَمْد.

وهَذَا القُرْبُ لا يُنَافِي كَمَالَ مُبَايَنَة الرَّبِّ لخَلْقِه واسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِه؛ بَلْ يُجَامِعُهُ ويُلازِمُهُ؛ فَإنَّهُ لَيْسَ كَقُرْبِ الأَجْسَام بَعْضِهَا مِنْ بَعْض ـ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ـ؛ ولَكِنَّهُ نَوْعٌ آخَرُ.

والعَبْدُ في الشَّاهد يَجِدُ رُوحَهُ قَرِيبَةً جِدًّا مِنْ مَحْبُوبٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَفَاوِزُ تَتَقَطَّعُ فيهَا أَعْنَاقُ المَطِيِّ، ويَجِدُهُ أَقْرَبَ إِلَيْه مِنْ جَلِيسه كما قيل:

أَلاَ رُبَّ مَنْ يَدْنُو ويَزْعُمُ أَنَّهُ
يُحِبُّكَ والنَّائِي أَحَبُّ وأَقْرَبُ

وأَهْلُ السُّنَّة ـ أَوْلِيَاءُ رَسُولِ الله أ وورَثَتُه وأحِبَّاؤُهُ الَّذينَ هُوَ عِنْدَهُمْ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وأَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهَا ـ يَجِدُونَ نُفُوسَهُم أَقْرَبَ إِلَيْه ـ وهُمْ في الأَقْطَارِ النَّائِيَة عَنْهُ ـ مِنْ جيرَانِ حُجْرَته في المدينَة.

والمُحِبُّونَ المُشْتَاقُونَ للكَعْبَة والبَيْت الحَرَام يَجِدُونَ قُلُوبَهُم وأَرْوَاحَهُم أَقْرَبَ إِلَيْهَا مِنْ جِيرَانِهَا ومَنْ حَوْلَهَا، هذا مَعَ عَدَم تَأَتِّي القُرْبِ مِنْهَا.

فَكَيْفَ بِمَنْ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِه كَيْفَ يَشَاءُ وهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِه؟!» اهـ.

وقال : ناصحًا ومُوَجِّهًا في أَثْنَاء كلامه عن قُرْبِ الربِّ y مِنْ عبْدِه في كتابه «بَدَائِعُ الفوائد» (519/3):

«وإيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ بِغَيْرِ العِبَارَة النَّبَوِيَّة، أَوْ يقَعَ في قَلْبِك غَيْرُ مَعْنَاهَا ومُرَادِهَا؛ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا».

ثمَّ قال ـ بعد ذلك ـ مُبَيِّنًا طَرَفَيِ المُتَنَكِّبِين سبيلَ الحَقِّ في هذه المَسْأَلَة:

«وقَدْ ضَعُفَ تَمْيِيزُ خَلائقَ في هَذَا المَقَام، وسَاءَ تَعْبِيرُهُم؛ فَوَقَعُوا في أَنْوَاعٍ مِنَ الطَّامَّات والشَّطَح.

وقَابَلَهُم مَنْ غَلُظَ حِجَابُهُ فَأَنْكَرَ مَحَبَّةَ العَبْد لرَبِّه جُمْلَةً وقُرْبَه منْهُ، وأعَادَ ذَلِكَ إلى مُجَرَّد الثَّوَاب المَخْلُوق؛ فَهُو عِنْدَهُ المَحْبُوبُ القَرِيبُ لَيْسَ إلاَّ.

وقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ طُرُق الرَّدِّ عَلَى هَؤلاءِ وهَؤُلاءِ في كِتَاب «التُّحْفَة» أَكْثَرَ مِنْ مِائَة طَرِيقٍ» اهـ.

وهَدَى اللهُ y أهلَ السُّنَّة وَلَهُ الحَمْدُ والمِنَّة، وهُمْ أَهْلُ الوَسَط الَّذي لا وَكْسَ فيه ولاَ شَطَط؛ فأَثْبَتوا ما نَطَقَتْ به الآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحَةُ مِنْ قُرْبِ اللهِ y مِنْ دَاعِيه وعَابِدِيه، مع إثْبَاتِهِم لعُلُوِّه ـ سبحانه ـ على خَلْقِه واستوائه على عرْشِه؛ فهو ـ سبحانه ـ عَلِيٌّ في دُنُوِّه، قَرِيبٌ في عُلُوِّه.

كما أنَّهم فَرَّقُوا بَيْنَ القُرْبِ العَامِّ والقُرْبِ الخَاصِّ، وما يَقْتَضيه كُلٌّ منْهُما مِنَ المَعَاني الخاصَّة به، وبهذا تَحقَّقَ في شَأْنِهِم قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حجز الأماكن في المساجد

• **السُّؤال:**

ما حكم حجز الأماكن في المساجد؟

• **الجواب:**

الحمد للّه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله اللّه رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإذا فارق المصلِّي مكانه للحاجة ليعود إليه؛ فهو أحقُّ بمكانه، سواء حجزه بشيء أو لم يحجزه، لقوله أ : «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَجْلِسِه ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِه**»[1]، غير أنَّ الأحقيَّة بالمجلس إنَّما تتقرَّر بالمفارقة اليسيرة كالتَّوضُّؤ وقضاء الحاجة أو الشُّغل اليسير أوَّلاً، كما يكون أحقَّ بمجلسه في تلك الصَّلاة وحدها دون غيرها، كما صرَّح به النَّوويُّ في «شرحه على مسلم»[2] ثانيًا.

فإذا انتفى أحد شرطي الأحقيَّة بالمجلس أو كليهما انتفى المشروط، ولم يبق للمكان المحجوز أيُّ وجهٍ للمطالبة والاستحقاق، والعلم عند اللّه تعالى.

(1) أخرجه مسلم (5818) أبو داود (4853)، والدَّارمي (2555)، وابن حبَّان (588)، وأحمد (7514)، والبيهقي (12059)، والبخاري في «الأدب المفرد» (1171)، وعبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (19792)، من حديث أبي هريرة Ç .

(2) (14/161-162).

في حكم التوسعة والسرورِ في ليلة عاشوراء

• **السُّؤال:**

جرت العادةُ عندنا أنَّ الكثيرَ من العائلات تقوم بإعداد طعام خاصٍّ (كالكُسْكُس باللَّحم أو الشَّخْشُوخَة أو غيرهما) ليلةَ عاشوراء سواءً صاموا أو لم يصوموا، فما حكم صُنْعِ هذا الطَّعام؟ وما حكم تلبيةِ الدَّعوة إليه؟

• **الجواب:**

يَوْمُ عاشوراء من بركات شهر اللّه المحرَّم وهو اليوم العاشرُ منه، وإضافة الشَّهر إلى اللّه ـ تعالى ـ تدلُّ على



شرفه وفضله؛ لأنَّ الله تعالى لا يُضيف إليه إلاَّ خواصَّ مخلوقاته، قال أ : «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ المُحَرَّمِ»[3]، وحُرمةِ العاشِرِ منه قديمةٌ، وفضلُه عظيمٌ، ففيه أنجى اللهُ موسى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وقومَه، وأغرق فرعونَ وجنودَه، فصامَهُ موسى ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ شكرًا لله، وكانت قريش في الجاهليَّة تصومُه، وكانت اليهودُ تصومُه كذلك، فقال لهم رسولُ الله أ : «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ»[4]، فصامه رسولُ الله أ وأَمَرَ بصيامه، وكان صيامُه واجبًا على أقوى الأقوال وأرجحها، ثمَّ صار مستحبًّا بعد فرض صيام شهر رمضان، ويستحبُّ صومُ التَّاسع معه، مخالفةً لليهود في إفراد العاشر، وفضلُه العظيم تكفير السَّنَة الماضية، فهذا هو الثَّابت في السُّنَّة المطهَّرة، ولا يُشرع في هذا اليوم شيءٌ غيرُ الصِّيام.

أمَّا محدثاتُ الأمور الَّتي ابتدعَتْهَا الرَّافضةُ[5] من التَّعطُّش والتَّحزُّن ونحوِ ذلك من البدع، فاتَّخذوا هذا اليومَ مأتمًا، ومن قابلهم النَّاصبة[6] بإظهار الفرح والسُّرور في هذا اليوم وتوسيع النَّفقات فيه، فلا أصلَ لهؤلاء وهؤلاء يمكن الاعتماد عليه، إلاَّ أحاديث مُختلَقَة وُضعتْ كذبًا على النَّبيِّ أ أو ضعيفة لا تقوى على النُّهوض.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية : ذلك بقوله:

«مثْلُ ما أحدث بعضُ أهل الأهواء في يوم عاشوراء، من التَّعطُّش والتَّحزُّن والتَّجمُّع، وغير ذلك من الأمور المحدثة الَّتي لم يَشْرَعْهَا الله ـ تعالى ـ ولا رسولُه أ ولا أحدٌ من السَّلف لا من أهلِ بيتِ رسولِ اللهِ أ ولا من غيرهم...

وكانت هذه مُصيبةً عند المسلمين ـ أي: قتلَ الحسين Ç ـ يجب أن تُتَلَقَّى بما يُتَلَقَّى به المصائب من الاسترجاع المشروع، فأحدثَ بعضُ أهل البدع في مثل هذا اليوم خلافَ ما أَمَرَ اللهُ به عند المصائب، وَضَمُّوا إلى ذلك من الكذب والوقيعة في الصَّحابة البُرَآءِ من فتنة الحُسَين Ç وغيرِها أمورًا أخرى ممَّا يكرهُهُ اللهُ ورسولُه...

وأمَّا اتخاذ أمثال أيَّام المصائب مآتم فهذا ليس في دين المسلمين، بل هو إلى دين الجاهليَّة أقرب» إلى أن قال : : «وأحدثَ بعضُ النَّاس فيه أشياءَ مستندةً إلى أحاديثَ موضوعة لا أصلَ لها مثل: فضل الاغتسالِ فيه، أو التَّكحُّلِ، أو المصافحة، وهذه الأشياء ونحوُها من الأمور المبتدَعَة كلُّها مكروهةٌ، وإنَّما المستحبُّ صومه... والأشبه أنَّ هذا وُضع لمَّا ظهرت العصبيَّة بين النَّاصبة والرَّافضة؛ فإنَّ هؤلاء اتَّخذوا يوم عاشوراء مأتمًا، فوضع أولئك فيه آثارًا تقتضي التَّوسُّع فيه واتِّخاذه عيدًا، وكلاهما باطل»[7].

وإذا عُلم أنَّه لا يُشرع في هذا اليوم إلاَّ الصِّيام؛ فلا يجوز تلبيةُ دعوة من اتَّخذه مأتمًا، ولا من اتَّخذه عيدًا؛ لأنَّه لا يجوز لأحد أن يغيِّرَ من شريعة الله شيئًا لأجل أحدٍ أو يزيدَ عليها ويستدركَ، والعلمُ عند الله تعالى.

---

(3) أخرجه مسلم (2755)، وأبو داود (2429)، والتِّرمذي (438)، والنَّسائي (1613)، وابن ماجه (1742)، وأحمد (8158)، من حديث أبي هريرة Ç .

(4) أخرجه البخاري (2004)، ومسلم (2656) أبو داود (2444)، وابن ماجه (1734)، والحميدي في «مسنده» (543)، من حديث ابن عباس È .

(5) الرَّافضة: فرقة من الشِّيعة الكبرى، بايعوا زيد بن علي، ثمَّ قالوا له: تبرَّأ من الشَّيخين (أبي بكر وعمر È) فأبى فتركوه ورفضوه، أي: قاطعوه وخرجوا من بيعته، ومن أصولهم: الإمامة، والعصمة، والمهديَّة، والتّقية، وسبّ الصَّحابة وغيرها.

(6) النَّاصبة: هم الَّذين يبغضون عليًّا وأصحابه، انظر: «مجموع الفتاوى» (301/25).

(7) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» لابن تيمية (2/129ـ133).



التجنُّس بجنسية أهل الكفر

• **السُّؤال:**

أنا شابٌّ جزائريٌّ مستقيمٌ على أَمْر ديني. إن شاء الله تعالى ، وأعيشُ في كَنَدَا مُذْ مُدَّة، وأحاولُ الخروجَ منها في أسرع وقت، ولكن ليس لي سَكَنٌ لأستقرَّ في بلدي، هل يمكنني أخذ الجواز الكَنَدي . بشروط أذكرها بعد قليل . إذ أنَّه يعينني على الخروج من هذا البلد والدُّخول إلى دول الخليج ومحاولة الإقامة هناك؛ وفيما يلي أذكر الشُّروط:

أولاً: إنَّ أخذ الجواز الكندي لا يلغي جنسيتي الجزائريَّة، بل تكون هي الأصليَّة، وهذا مقرَّرٌ عندهم، كما أنَّ الدَّولة الجزائريَّة تقبل التَّعدُّد.

ثانيًا: يمكنني التَّخلِّي عن هذا الجواز في أيِّ وقت شِئْتُه بدون أي مشكلة، وهذا . أيضًا . مقرَّرٌ عندهم في قوانينهم.

ثالثًا: يمكنني تفادي القَسَم على احترام المَلَكَة وأبنائها ومَلِكها بأن أجلس في آخر القاعة ولا أتلفَّظ بأيِّ شيء.

أفيدونا بارك الله فيكم.

• **الجواب:**

إنَّه لا يجوز التَّجنُّس بجنسية أهل الكفر، ولو مع المحافظة على الجنسيَّة الأصليَّة؛ للآثار السّلبية الَّتي تعود على دينِ المسلم وعقيدته، ويكفي أن يُعْلَمَ تَرَتُّب الرِّضا الضِّمْني بتطبيق الأعراف والقوانين الكُفْريَّة لذلك البلد، فضلاً عن التَّحاكم إليهم، والاعتزاز بكونه مواطنًا كَنَديًّا، وما يُفضي إليه من المودَّة والتَّشبُّه بهم في أفعالهم وأقوالهم، وهو ينافي الإيمان إمَّا في كماله أو في أصله بحَسَب الحال، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...﴾ [المجادلة: 22].

فالمسلمُ مطالبٌ بإكمال دينه وزيادة إيمانه بالدَّعوة إلى الله ـ تعالى ـ وإظهار الإسلام، إذ من شروط إباحة السَّفر إلى بلاد الكفر إظهارُ الدِّين، والجهر بشعائره على سبيل الكمال بلا معارضة في شيء منها، مع الاستطاعة على الولاء والبراء، ومن لا يقدر على ذلك فالواجب عليه أن يعود من حيث جاء ويجتهد في طلب العمل ويكتفي بالقليل، وليسألِ اللهَ التَّوفيقَ فهو خيرُ مُعِينٍ وأحسن كفيلٍ، والعلمُ عند الله تعالى.

في تقدير النفقة بعد الطلاق

• **السُّؤال:**

ما هو مقدار النَّفقة الَّذي يحدِّده الشَّرع للزَّوجة بعد وقوع الطَّلاق؟ وهل يراعى فيه دخل الزَّوج وحالته الماليَّة؟ وبارك الله فيكم.

• **الجواب:**

اعلم أنَّ النَّفقة والسُّكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة، فللمعتدَّة في الطَّلاق الرَّجعي النَّفقة



والسُّكنى لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: 6]، وكذلك للمعتدَّة الحامل النَّفقة سواء كانت في عدَّة الطَّلاق الرَّجعي أم البائن أم كانت في عدَّة وفاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 6]، أمَّا المبتوتة فلا نفقة لها ولا سُكنى على الصَّحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله ﷺ في حديث فاطمة بنت قيس: «لَيْسَ لَك عَلَيْه نَفَقَةٌ»[8]، وفي رواية: «لا نَفَقَةَ لك ولا سُكْنى»[9]، هذا ما رجَّحه ابن القيِّم والشَّوكاني وغيرهما، كما أنَّ المبتوتة لا نفقة لها فكذلك المعتدَّة من وفاة إلاَّ أن تكونا حاملتين؛ لقوله ﷺ: «لا نَفَقَةَ لَك إلاَّ أَنْ تَكُوني حَاملاً»[10].

هذا؛ وإذا كانت الزَّوجة المطلَّقة طلاقًا رجعيًّا مقيمة مع زوجها، ويتولَّى إحضار ما يكفيها من حاجياتها من طعام وكسوة وغيرهما، فلا حقَّ للمرأة أن تطلب فرض النَّفقة؛ لقيام الزَّوج بواجبه، فإذا كان بخيلاً أو تركها بدون نفقة فلها أن ترفع أمرها للقاضي؛ ليقضي لها بالنَّفقة، أو تأخذ من ماله ما يكفيها بالمعروف؛ لحديث هند بنت عتبة رضي الله عنها، قال لها رسول الله ﷺ: «خُذي مَا يَكْفيك وَوَلَدَك بالمعْرُوف»[11].

فالحاصل أنَّ النَّفقة تقدَّر بكفاية المرأة مع التَّقييد بالمعروف، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص، وترجع السُّلطة للقاضي في تقدير النَّفقة وتقريرها، والعلم عند الله تعالى.

(8) أخرجه مسلم (3770)، وأبو داود (2286)، ومالك في «الموطإ» (1228)، والبيهقي (14394).

(9) أخرجه مسلم (3771)، والبيهقي (16132)، من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(10) أخرجه أبو داود (2292)، وأحمد (28097)، من حديث فاطمة بنت قيس ﷺ، والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (2160).

(11) أخرجه البخاري (5364)، ومسلم (4574)، وأبو داود (3534)، والنَّسائي (5437)، وابن ماجه (2381)، وأحمد (248454)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

في اعتبار صحة دخول طالب العلم في سهم «وفي سبيل الله»

• السُّؤال:

قرأتُ في «تفسير الشَّيخ السعدي ﷺ» في آية الزَّكاة من سورة التَّوبة؛ في بيان صنف «وفي سبيل الله» قولَه: «وقال كثير من الفقهاء: إنْ تفرّغ القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزَّكاة؛ لأنَّ العلم داخل في الجهاد في سبيل الله» اهـ.

فهل يدخل في سهم «في سبيل الله» طالب العلم؟ كأن يعطى من المال من أجل السَّفر لطلب العلم؟ أو لشراء الكتب؟

وجزاكم الله كلَّ خير.

• الجواب:

بغضِّ النَّظرِ عن مذهب المُوَسِّعين في معنى «في سبيل الله» في آية مصارف الزَّكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ...﴾ [التوبة: 60]، فإنَّ ما دلَّت عليه السُّنَّةُ الصَّحيحةُ دخولُ صنفين فيه فقط، وهما:

الأوَّل: الغازي الَّذي ليس له سَهْمٌ أو راتبٌ في الخزانة العامَّة ولو كان غنيًّا؛ لقوله ﷺ: «**لا تَحلُّ الصَّدقةُ لغَنِّيٍّ إلاَّ لخَمسْة: لعَامل عَلَيْهَا، أَوْ رَجُل اشْتَرَاهَا بمَاله أَوْ غَارم، أَوْ غَازٍ في سَبيل الله، أَوْ مسْكين تُصُدِّقَ عَلَيْه فَأَهْدَى منْهَا لغَنيٍّ**»[12]، ولقوله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى**

(12) أخرجه أبو داود (1635)، ومالك في «الموطَّإ» (604)، والحاكم في «المستدرك» (1480)، وأحمد (11298)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (13440)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (870).

الله عَوْنُهُمْ: المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ»[13].

الثَّاني: الحاجُّ حَجَّة الإسلام؛ فهو في سبيل الله، ويُعطى من الزَّكاة ما يحجُّ به إن كان فقيرًا؛ لحديث ابن عبَّاس È، قال: «أَرَادَ رَسُولُ الله أ الحَجَّ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لِزَوْجِهَا: أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ الله أ على جملك فَقَالَ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّك عَلَيْهِ، قَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلَانٍ، قَالَ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ الله Y، فَأَتَى رَسُولَ الله أ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَرَحْمَةَ الله، وَإِنَّهَا سَأَلَتْنِي الحَجَّ مَعَكَ، قَالَتْ: أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ الله أ، فَقُلْتُ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّك عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلَانٍ، فَقُلْتُ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ: **«أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَحْجَجْتَهَا عَلَيْهِ كَانَ فِي سَبِيلِ الله»**[14]، وأخرج ابنُ خزيمة منْ حديث أبي لَاسٍ الخُزَاعِيِّ Ç قال: «حَمَلَنَا رَسُولُ الله أ عَلَى إِبِلٍ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ ضِعَافٍ لِلْحَجِّ..»[15] الحديث.

وقد سُئِلَ ابنُ عمر عن امرأة أوصت بثلاثين درْهَمًا في سبيل الله، فقيل له: فتُعطيها في الحجِّ؟ فقال: «أَمَا إِنَّهُ من سَبِيلِ الله»[16].

أمَّا صَرْفُ الزَّكاة لطالب العِلْم وإن كان له وَجْهٌ في اندراجه ضِمْنَ معنى الجهاد عند القائلين بأنَّ الآية من بقيَّة الجهاد إلاَّ أنَّ التَّصريح بالغازي في الحديث يمنع هذا المعنى من جهة، ولأنَّ الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ...﴾ نزلت وليس فيها طلبةُ العلم بالمفهوم الحالي من التَّدرُّج في مدارج العلوم والتَّفرُّغ لها، اللَّهمَّ إلاَّ الاستفادة من الأحكام الشَّرعية من النَّبيِّ أ مباشرةً أو بواسطة.

علمًا أنَّ أهلَ التَّفسيرِ اختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً...﴾ [التوبة: 122]؛ هل أنَّه من بقيَّة أحكام الجهاد أم لا؟ «وذهب آخرون إلى أنَّ هذه الآيةَ ليست من بقيَّة أحكام الجهاد، وهي حكم مستقلٌّ بنفسه في مشروعيَّة الخروج لطلب العلم والتَّفقُّه في الدِّين، جعله الله سبحانه متّصلاً بما دلَّ على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السَّفر نوعين: الأوَّل: سفر الجهاد، والثَّاني: السَّفر لطلب العلم»[17].

وعلى هذا المعنى لا تكون الآية من بقيَّة أحكام الجهاد، فلا يصحُّ أن يُلْحَقَ طالبُ العلم بالغازي في سبيل الله، وإلاَّ لَلَزِمَ إدخالُ كُلِّ ما فيه نُصرةٌ للإسلام وإعلاءُ كلمته أيًّا كان نوع هذا الجهاد وسلاحه، سواء كان الجهاد بالقلم واللِّسان، أو بالسَّيف والسِّنان، أو تعليميًّا أو تربويًّا، أو ما إلى ذلك، فمثل هذا التَّوسُّع في المعنى لا أعلم له نقلاً عن الرَّعيل الأوَّل؛ لذلك يقصر معناه على ما ثبت في السُّنَّة أنَّ «في سبيل الله» في مصارف الزَّكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ...﴾ للغزاة والحجِّ، والعلمُ عند الله تعالى.

■ ■ ■

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

---

(13) أخرجه التِّرمذي (1655)، والنَّسائي (3218)، وابن ماجه (2518)، والحاكم (2859)، وأحمد (7368)، والبيهقي: (22231)، من حديث أبي هريرة Ç، والحديث حسَّنه البغوي في «شرح السُّنة» (6/5)، والألباني في «غاية المرام» (210)، وصحَّحه أحمد شاكر في «تحقيقه لمسند أحمد» (13/149).

(14) أخرجه أبو داود (1990)، وابن خزيمة في «صحيحه» (3077)، والحاكم في «المستدرك» (1779).

(15) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (2377)، والحاكم في «المستدرك» (1624)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى»: (10454)، والحديث حسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (5/342).

(16) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (26573).

(17) «فتح القدير» للشَّوكاني (2/416).



الشيخ علي بن عمارة البرجي

صلابةٌ في الحقِّ، وتفانٍ في خدمة العلم والدَّعوة

سمير سمراد
إمام خطيب. الجزائر

الشَّيخ علي بن عمارة البرجي، نسبةً إلى «البُرْج»: قرية (مِنْ قرى الزِّيبان) تبعد عن «طولقة» بنحو (4 كلم)، وعن «بسكرة» بنحو (40كلم)، وتُعرف بـ: «برج ـ طولقة» و«برج ابن عزُّوز»، وهي بلدية من بلديات دائرة «طولقة»، ولاية «بسكرة».

هو أحد علماء الوطن الجزائري، طارت شهرته وذاع صيتُهُ في أرجاء» بسكرة «في منتصف العشرينيَّات.

وكان معدودًا في الطَّبقة العالمة العاملة، وفي جملة الأساتيذ النَّابغين، حتى لقبَ بـ«**نحرير البُرج**»؛ فقد جاء على لسان أحد رؤساء زاوية الشَّيخ علي بن عمر (الزَّاوية العثمانيَّة) بـ: «طولقة»: الشَّيخ عبد المجيد ابن إبراهيم، وهو يستحثُّ علماء الوطن على التَّصدِّي للإجابة على مشكلات المسائل الدِّينيَّة ومهمَّاتها، قولُه[1]:

«...وحيثما كانت هاته المسائل من المهمَّات الدِّينيَّة؛ اقترحتُ على عامَّة علمائنا: الجواب عن عِلَلها للحاجة إليها فَسَنُلْفِتُ أنظارَ... نِحْرير البُرْج علي بن عمارة...»، في جماعةٍ سمَّاهُم من مختلف جهات الوطن.

(1) جريدة «النجاح»، [العدد (299)، الجمعة 8 ذو القعدة 1344هـ/ 21 ماي 1926م، (ص3)]: مقال: «الفائدة المطلوبة» (6).

مولده وتعلُّمه:

ولد الشَّيخُ في بلدة «برج بن عزوز» سنة (1895م).

■ يقول الأستاذ سليمان الصّيد : :

«منذ صغره اتَّجه الوجهة الصَّحيحة؛ إذ اغترف من منهل العلم، وقد قرأ كتاب اللّٰه العظيم في «برج ابن عزُّوز» على طلبة البرج وشيوخها الأجلَّاء، وبعد حفظه القرآن الكريم، وأخذه للمبادي العلميَّة الَّتي كوَّنته على علماء بلده ونواحيها؛ تاقت نفسه إلى التَّزوُّد بالعلم؛ فانتقل في ظَرْف صعب لم يُثْنِه عن طلب العلم إلى تونس، والتحق بجامع الزَّيتونة وبقي عدَّة سنوات في الدراسة»[2].

تخرجه من جامعة الزيتونة (1925م):

تخرَّج الشَّيخُ عامَ (1925م) من الجامعة الزَّيتونيَّة، وكان من رفقائه فيها: الشَّيخ محمَّد ابن خير الدِّين الفرفاري (من «فرفار» ـ طولقة)، وقد فازَا معًا في العام نفسه في امتحان شهادة «التَّطويع» (العالميَّة)، ورجعَا إلى الوطنِ عالمَين عاملَين؛ ليُشاركا في نهضته العلميَّة الدِّينيَّة.

■ وقد كتبت «النَّجاح»[3] ـ لصاحبها الشَّيخ عبد

(2) جريدة «النصر» [الأربعاء 09 شعبان 1407هـ ـ 8 أفريل 1987م، (ص7)]، سليمان الصيد: «من تاريخنا الثقافي: علي بن عمارة البرجي».

(3) «النجاح»: العدد (216)، (ص3)، 10 جوليت 1925م.

الحفيظ بن الهاشمي (عثماني) ـ تهنِّئُ المذكورَيْنِ وغيرَهما من الجزائريين؛ فقالت:

«(العلماء الجدد) من الكليَّة الزَّيتونيَّة:

فاز في امتحان الكليَّة الزَّيتونيَّة هذه السَّنة العلماءُ الأجلاَّءُ المشايخُ السَّادة:

...علي بن عمارة من البرج ـ طولقة... محمَّد ابن خير الدِّين الفرفاري من فرفار ـ طولقة... فنُهَنِّيهمْ بالدَّرجة العلميَّة الَّتي حصلوا عليها بفضل كَدِّهمْ وألْمعِيَّتِهمْ كما نُهَنِّي القطر الجزائري بهم».

■ وكتبَ الإمامُ ابن باديس صاحبُ: «المنتقد»[4] كلمةً تحملُ أسمى المعاني، وتنضحُ بغيرة دينيَّة عظيمة لا يحملها إلاَّ صدرٌ مثلُ صدره، وهي صالحةٌ لأَنْ يُخاطَبَ بها كلُّ مؤهَّلٍ في العلم ومَن هو معدودٌ في أهله، فنوجِّهُ عنايةَ إخواننا إليها، وندعوهم إلى الإصغاءِ إليها، عسى أن تعيَها قلوبُهم، وتنشطَ للأخذ بها هممُهم، فما أشبهَ الحالَ بالحال، وما أحوجنا إلى أمثالِ أولئك الرِّجال!

«**التَّهنئةُ الحقَّة: رجالُ العلم:**

في كلِّ عام منذ سنوات يفوزُ بشهادة العالميَّة «التَّطويع» من جامع الزَّيتونة المعمور؛ جماعة من أبناء الجزائر، وقد فاز هذا العام هؤلاء السَّادة الفضلاء على التَّرتيب:

...محمَّد خير الدِّين/فرفار ـ طولقة.

...علي بن عمارة/البرج ـ طولقة...

فنُهَنِّيهِمْ ونُهَنِّي بهم الوطن، مُذَكِّرِينَ لهم بأنَّ إحياءَ اللُّغة وقتلَ الضَّلالات ونَشْرَ المعارف هُمْ وَأَمْثَالُهُمْ المسؤولون عَنْهُ، والمضطلعون للقيام به، فَعَلَيْهِمْ أن يجاهدوا في سبيله مع امتزاجهم بطبقات الأمَّة واطِّلاعهم على جميع شؤونها العامَّة، وصبرهم على كلِّ بلاء يلحقهم من جهل الجاهلين واستبداد الظَّالمين وكيد الخائنين، فإنَّهم جنودُ الحقِّ، وأشرفُ حالات الجنديِّ أن يموتَ في خطِّ الدِّفاع، ولَكُمْ «بِحَمْدِ الله» مِنْ ثَاقب الفكْر وصحيح العلم ونشاط الشَّباب ما يُؤَهِّلُكُمْ للنُّهُوض بكُلِّ عظيم».

انتصابه للعمل الإصلاحي في بلدته:

لقد اضطلع الشَّيخ علي بن عمارة بالمسؤوليَّة، وعرف خطر المهمَّة؛ فانتصبَ للعمل الإصلاحي، وشرع فيما هو واجبٌ على أمثاله؛ من نشر العلم والتَّعليم والدَّعوة إلى الحقِّ والتَّحذير من الباطل، واستصلاح ما فسد من حال هذه الأمَّة المغبونة، الجاهلة بدينها والمغرَّر بها، وتحريرِها ممَّن تسلَّطوا عليها من الدَّجاجلة والطَّمَّاعين!

■ يقول الشَّيخ محمَّد بن خير الدِّين ـ الَّذي انتصب للتَّدريس في بلدته «فرفار» وما جاورها من قرى واحات الزيبان، بعد عودته من تونس سنة (1925م) ـ:

«كنت أقوم خلال هذا النَّشاط التَّعليمي بالتَّنقُّل إلى قرى الزَّاب وما حولها **من أجل التَّنسيق مع إخواني ببسكرة؛ أمثال** الشَّيخ الطَّيِّب العقبي، **وزميلي في الدِّراسة بالزَّيتونة الشَّيخ علي بن عمارة البرجي**، والشَّيخ محمَّد العيد آل خليفة والأستاذ الأمين العمودي ـ رحمهم الله ـ، وكانوا يبادلونني الزِّيارة أفرادًا وجماعات في المناسبات المختلفة الخاصَّة والعامة»[5].

إلى جانب الشيخ ابن باديس والشيخ الطيب العقبي:

ولبيانِ مدى الالتحام والاتِّحاد بين المصلحين السَّلفيِّين؛ أنقلُ هنا مُكَاتبةً ـ على طولها ـ نُشرَت في «صدى الصَّحراء» عن «الوفد العلمي القسنطيني، يوم

(4) «المنتقد»، العدد (3)، الخميس 24 ذي الحجة 1343هـ/ 16 جوليت 1925م.

(5) «مذكرات الشيخ محمد خير الدين» (1/88).

الخميس 11 فيفري [1926م]، قَدِمَ وفدٌ علميٌّ من مدينة قسنطينة إلى حاضرة بسكرة... يتألَّف هذا الوفد من علاَّمة القطر الأستاذ الجليل الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس والكاتب الكبير... الشَّهير الشَّيخ مبارك الميلي...»، «**وبهذه المناسبة ـ أيضًا ـ قدم من الزِّيبان حضرة الشَّيخ علي بن عمارة البرجي** والشَّيخ محمَّد ابن خير الدِّين الفرفاري والشَّيخ الصِّدِّيق بن عريوة الزَّيتونيُّون..»، «ذهب إلى المحطَّة لملاقاة ذلك الوفد الفخيم جمعٌ من الأدباء والفضلاء وفي مقدِّمتهم الرَّجل الوحيد والمصلح الكبير والكاتب القدير والسِّياسي الشَّهير الأستاذ الطَّيِّب العقبي...»[6].

«ومن الغد ذهبوا إلى بلدة «سيدي عقبة» لأداء صلاة الجمعة...»،

«راجعين إلى «بسكرة».. يوم السَّبت...».

«**ويوم الأحد سافر هذا الوفد الفخيم إلى طولقة باستدعاء من العلاَّمتين الفاضلين الشَّيخ علي ابن عمارة والشَّيخ محمَّد بن خير الدِّين الزَّيتونيِّين...** توجه الوفد إلى بلدة «البرج» باستدعاء من العلاَّمة الشَّيخ «**علي بن عمارة**» فنزل بمحلِّه ثمَّ قصد جامع الشَّيخ ابن عزُّوز لتأدية صلاة العصر ومنه إلى جامع الجمعة وقد ألقى فيها الأستاذ الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس درسًا، فسَّر فيه قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس]، وقد أبدع وأجاد فيه، وبيَّن حقيقة الوليِّ وما يعتقد فيه، **ثمَّ اقترح الشَّيخ علي بن عمارة على الشَّيخ الطَّيِّب بأن يُلْقِيَ على الحاضرين كلمات ليبرِّئ نفسه ممَّا أُشيع عنه من نكران (الولاية) و(الكرامة) و(الزِّيارة) لقبور الأولياء**، فتكلَّم في الموضوع بإسهاب، وبيَّن للنَّاس أنَّه لا ينكر الولاية من أصلها والكرامة والزِّيارة بشرطهما الشَّرعيَّين، وما كاد يتمُّ درسه حتَّى رجع الحاضرون عن كلِّ ما كانوا يسمعونه عنه من الأراجيف والأباطيل، وقد حصل التفاهم والحمد لله...» اهـ.

يبدو أنَّ الشَّيخ ابن باديس كان يُولي الاهتمام الكبير لدعوة الشَّيخ العقبي في «بسكرة» ولدعوة إخوانه وأنصاره في «الزيبان»، وجاءت هذه الرِّحلة أو الزِّيارة دليلاً على ذلك، كما جاءت للتَّأكيد على المؤازرة والنُّصرة، وشدِّ عضدهم بإخوانهم في حاضرة قسنطينة، كما قد تكونُ لأجل التَّخفيف من حدَّة الصِّراع بين الفريقين (السَّلفيِّين والطُّرقيِّين)، والتَّدخُّل لإيجاد سبيل للتَّفاهم، بإيجاد خطابٍ ليِّن وهادئ؛ بعد تلك الثَّورة الجامحة، والهجوم العنيف! وإحداث توازنٍ دون الإيغال والإسراف في الهجوم! ويشهدُ لهذا أنَّ ابن باديس كان قد أَوْقَفَ في مجلَّته «الشِّهاب» الكتابات الهجوميَّة، ممَّا أغضب عليه الشَّيخَ العقبي، الَّذي لم يُرْضِهِ أن يكون ـ حسْبَهُ ـ لأهل الضَّلال هذا الامتياز!

والمقصودُ أن هذه الزِّيارة نَفَعَت الشَّيخَ العقبي وإخوانه العلماء، وأعطت نجاحًا ودفعًا أكثر لدعوتهم[7].

محاربته للطرقيين:

■نشر الشَّيخ السَّعيد الزَّاهري في جريدته «البرق»[8]، مكاتبةً ظريفةً عن: «وفد الشُّعراء يزور طولقة ـ فرفار ـ البرج»، الَّذي ضمَّ: «الأمين العمودي، الطَّيِّب العقبي، محمَّد العيد، السَّعيد الزَّاهري»، وهؤلاء أعمدةُ الإصلاح وزعماؤُهُ في «بسكرة»، وبعد زيارة طولقة ثمَّ فرفار،

(6) «صدى الصَّحراء»، العدد (11)، (ص2)، 16 شعبان 1344هـ/ 1 مارس 1926م.

(7) «الشيخ الطَّيِّب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية» (ص81 ـ 83) للأستاذ أحمد مريوش.

(8) [العدد (8)، 23 شوال 1345هـ/ 25 أفريل 1927م، (ص1)، والعدد (9)، 30 شوال 1345هـ/ 2 ماي 1927م، (ص2)].

يقول الزَّاهري:

«...مشينا إلى «البرج»؛ فنزلنا في ضيافة الأستاذ الشَّيخ علي بن عمارة؛ فظَلَلْنَا عنده عامَّة يومنا، وقد قرأ الأستاذ العقبي بعد صلاة العصر درسًا هائلاً حضره أهل البلاد كافَّة؛ ولقد فتحنا بذلك فتحًا مبينًا، فأصبح النَّاس يدخلون في دين الله أفواجًا، وإن كانوا قبل ذلك من المسلمين»، ثمَّ رجعوا إلى فرفار.

■ يقول الزَّاهري:

«ثمَّ ركبنا عند الزَّوال قطار بسكرة وشايعنا إلى محطة «ليشانة» حضرات الأساتذة السَّادة: محمَّد خير الدِّين، **علي بن عمارة**، بلقاسم الميموني، وكان الشَّيخ السَّعدوني[9] ركب وتبوَّأ مقعده قبلنا ولم أكن رأيته قبل اليوم... وقد حيَّاهُ الجماعة قبلي، وسبقوه بالسَّلام عليه، **وما كدنا نتبوَّأ مقاعدنا حتَّى أخرج سيدي علي بن عمارة العدد السَّادس من جريدة «البرق»، وكلَّفني أن أقرأه أنا بالجهر على القوم وهم يسمعون؛ فقرأت أكثره وقرأ هو ما بقي كذلك**، ثمَّ ودَّعونا في محطَّة «ليشانة»، **ولم يتكلَّم الشَّيخ السَّعدوني** في أثناء هذه المدَّة بكلمة مع أنَّنا جميعًا نكلِّمه ونقبل عليه بكلِّ أدب...».

■ ونشر صاحب «البرق»[10] - أيضًا - مكاتبةً لـ«سائح» تحت عنوان: «سياحة»، وصَدَّرُ هذه المكاتبة يُشعرُ بأنَّها لصاحب «البرق» نفسه؛ الشَّيخ السَّعيد الزَّاهري، يقول:

«ثمَّ رحلنا منها [أي: طولقة] إلى بلدة «البرج» بلدة ذلك الأستاذ الحكيم شديد اللَّهجة على الطُّرقيِّين الخرافيِّين وأذنابهم المتملِّقين؛ الشَّيخ علي بن عمارة، فقابلني مع جمع من تلامذته وهو يبتسم قائلا: ليعيش حزب الله المؤمنون الصَّالحون، ولنسقط ليعيش حزب الله المؤمنون ولنسقط، تبيَّن لي أنِّي قابلت أسدًا من أسد الله، فقلت له: سبحان الله! يا ويل الطُّرقيِّين ويا ويح أذنابهم منك! ثمَّ التفتُّ إلى جماعة تلامذته المصلحين فوجدتهم كالأشبال حولنا يتَّقدون غيرةً على الدِّين والوطن والإنسانيَّة، ويمقتون كلَّ طرقيٍّ كيفما كانت صبغته، وبأيِّ شكل تشكَّل، ومن أيِّ نوع خرج، وأنشدني بعض تلامذة الأستاذ المذكور قصيدة يهجو بها فرُّوج (أورلال)[11] الطُّرقي ومطلعها: «بين «بيقو» و«بن طيوس» سراب»، وسينشرها في «البرق» الخاطف لأهل الزَّيغ والضَّلال الَّذين يقولون: الرُّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة ضلالة أبديَّة وشقاوة سرمديَّة اليوم وقبل اليوم...!!!

وقد صفا جوُّ بلدهم «البرج» من خرافات الطُّرقيِّين بسبب ما يلقيه فيهم أستاذهم الشَّيخ علي من الدُّروس المتوالية والأفكار الطَّيِّبة السَّديدة؛ فبتنا ليلة عندهم، وما أجملها!

ليلةٌ نتحادث فيها على أحسن الطُّرق الَّتي توصل لرقيِّ أمَّتنا وما فيه صلاحها؛ ومن جملة ما ذكرنا تعليم النَّاشئة الجديدة بطرق صالحة مفيدة.

وبهذه المناسبة ذكر لي أنَّه عزم على إنشاء مكتب للأولاد الصِّغار لتعليم القرآن وشيء من المبادئ العلميَّة؛ لأنَّ المكتب القديم صار غير صالح لِمَا فيه من القاذورات والرُّطوبات...» اهـ.

قصة (مطبعة الإصلاح) ودورُه فيها:

وكما قام الإمام ابن باديس في «قسنطينة» بتأسيس جريدته: «المنتقد» ثمَّ «الشِّهاب»، لتكون لسان الشُّبَّان النَّاهضين، ومنبرًا لأقلام المصلحين السَّلفيِّين، تجولُ

(9) وهو من الشُّيوخ المعادين لدعوة «الإصلاح»، وله كتاباتٌ معارضة في صحيفة «النجاح»، توفي ببلدته: «أورلال»، سنة (1931م).

(10) العدد (؟؟؟)، 19 محرم 1346هـ/ 18 جويلية 1927م/ (ص3).

(11) هو الشيخ السعدوني بن المدني، المتقدم الذِّكر! وهو صاحب مقالة: «الرجوع إلى الكتاب والسنة ضلالة» الخ، نَشَرَ ذلك في «صحيفة النجاح»!



وتصولُ تعْرِضُ «الإسلام الصحيح»، وتَشُنُّ الهجوم على الباطل والمبطلين، قامت الجماعةُ المصلحة في «بسكرة» بتأسيس صحافة حرَّة، فكانت «صدى الصحراء» (سنة 1925م) لصاحبها الشَّيخ أحمد بن العابد العقبي، وقد شاركهُ في التَّأسيس والتَّحرير، الزَّعيم: الطَّيِّب العقبي، والشَّيخ علي بن عمارة، وغيرهما من العلماء والكتّاب الأدباء[12].

ثمَّ أسَّسَ الطَّيِّب العقبي جريدتَهُ «الإصلاح»؛ وقد شاركه في تأسيسها الشيخ علي بن عمارة وغيره من المصلحين[13].

صدر العددُ الأول منها في 8 سبتمبر 1927م، طَبَعَهُ في تونس، بعد أن عجز عن طبعه في مطبعة جزائرية!

وقفت الإدارة الفرنسية في وجه «الإصلاح»، ومَنَعَتْهَا من الصدور وعطَّلَتْ طبعَهَا في تونس!

وبعد عناءٍ كبير، «تمكَّنَ العقبيُّ من إصدار العدد الثَّاني من جريدته بتاريخ 5 سبتمبر 1929م، أي بعد سنتين كاملتين من صدور العدد الأوَّل»[14]، طُبعت «الإصلاح» هذه المرَّة!.. ليسَ في قسنطينة ولا في الجزائر ولا في تونس! وإنَّما طُبعت في بسكرة.

■ يحدِّثنا الشَّيخ محمَّد بن خير الدِّين (1/91) عن «مطبعة الإصلاح»، وقد سمِّيت: «المطبعة العلميَّة»، واشتراك جماعة من المصلحين (منهم: الشَّيخ علي ابن عمارة) لشرائها، (وذلك بهدف إصدار جريدة «الإصلاح» الَّتي أدارها الشَّيخ الطَّيِّب العقبي، والقيام ببعض الأعمال التِّجارية الَّتي خُصِّص عائدُهَا للإنفاق في سبيل الحركة الإصلاحيَّة، وقد جعلناها وَقْفًا على خدمة الحركة الدِّينيَّة الإصلاحيَّة؛ راجين بذلك ثواب الله»، وانظر صورةَ العقد [المخطوط] بأسماء المشاركين، في «مذكِّرات الشَّيخ خير الدِّين» (1/93 ـ 94)؛ وبدايتُهُ:

«نحن الممضين أسفل هذا؛ نشهد على أنفسنا أنَّنَا أقرضنا الشَّيخ الطَّيِّب العقبي عدد (32500) اثنين وثلاثين ألفًا وخمسمائة فرنكًا، وهذا العدد دفعه أصحاب الأسماء أسفله:

السَّيد خير الدِّين محمَّد... **السَّيِّد علي ابن عمارة**... السَّيِّد محمَّد العيد حمّ علي... وهذا القرض على سبيل الإحسان فقط، أي بغير فائدة، ولأجلٍ غيرِ مُسَمَّى، والغرض منه إنشاء مطبعة ببسكرة تحت إدارة الشَّيخ الطَّيِّب العقبي، وإنَّ الشَّيخ الطَّيِّب العقبي لا يُلْزَمُ بأداء العدد المذكور أعلاه إلاَّ إذا سلّم المطبعة إلى غيره ... 1 **جوان سنة** 1929....» اهـ.

لقد سَخَّر المصلحون أموالهم لأجل الدَّعوة، ولضمانِ استمرارها وبقاءِ قوَّتِهَا، وساندوا الزَّعيمَ الكبير ووقفوا إلى جانبه في محنته ومحنتهم بتعثُّر «الإصلاح»، وأبَتْ عليهم همَّتُهُمْ وأنفتْ غيرتُهم الدِّينيَّة أن تبقى مكتوفةَ الأيدي تتفرَّجُ على ما أصاب «الإصلاح»!

فأين السَّلفيُّون اليوم! من مثلِ هذه المؤازرة؟! ولا يزالُ أهلُ العلم يشكون من فقدِ النَّصِير، وعدم الظَّهير!

ويناسبُ هنا نقلُ ما حدَّث به الجمال القاسمي الدِّمشقي (سنة1329هـ) عن الطَّاهر الجزائري؛ أنَّه كان يقول لهم:

«أمَا يكفي فلانًا أن يُنْفِقَ من زمانه وقُوَّته لتقوية الحقِّ ومقاومة الجمود حتَّى يحمل همَّ النَّفقة لإظهاره؟!

(12) جريدة «النصر» [الأربعاء 09 شعبان 1407هـ ـ 8 أفريل 1987م، (ص7)]، سليمان الصيد: «من تاريخنا الثقافي: علي بن عمارة البرجي».

(13) المرجع نفسُهُ.

(14) «الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية» (ص101) للأستاذ أحمد مريوش.



فأين الإنصاف؟!

وبالجملة فالحالة عندنا عجيبة جدًّا، **والعَتْبُ كُلُّهُ على عدم مؤازرة مُثْرِي السَّلَفيِّين لأهل مَشْرَبِهِمْ، والمستعان بالله**»[15].

■وقد كتب الشَّيخ علي بن عمارة[16]، مقالاً بعنوان: «جريدة الإصلاح»، تكلَّم فيه عن محنة «الإصلاح»، ثمَّ انتصاره، قال:

«ولا تحسب أنَّ عملهم هذا أو وقوفهم هذا الموقف الإصلاحي الخطير، قد تُرِكُوا فيه وشأنهم حتَّى ينتبه الغافل ويستيقظ النَّائم، فناوشتهم الأقلام الفاجرة من كلِّ ناحية، وسلقتهم الألسن بكلِّ نقيصة، ففسَّقوهم وكفَّروهم ونسبوهم للإلحاد والزَّندقة... **فَعَادَانَا القريب والبعيد حتَّى أسرتُنَا وأصدقاؤنا، ولو لم نصبر على ذلك السَّيل الجارف، ونتلقَّاه بالتَّدرُّع والثَّبات، فنشتدّ ساعة الشِّدَّة، ونلين وقت اللِّين**؛ لَمَا كانت عاقبتنا الفوز والنَّجاح، ولَما تجلَّت الحقائق وسطعت واضحة الجبين...».

وختم مقاله بقوله: «ونشكر كلَّ من آزرنا على إنشاء المطبعة العلميَّة ببسَّكرة، فإنَّهم أحسنوا وأحسنوا وأحسنوا، جزاهم الله بأحسن الجزاء... فلقد أحيوا «الإصلاح»، وبإحيائه فكأنَّهم أحيوا النَّاس جميعا، ولولاهم لبقي أبد الدَّهر مقبورًا مهضوم الجانب...» اهـ.

لم تقف مَكْرُمَاتُ الشَّيخ «علي بن عمارة» عند الاشتراك في تأسيس «المطبعة العلميَّة»، فقد روى الأستاذ الصّيد مكرمةً أخرى له، تُنبِئُ: «عن إخلاص الشَّيخ علي ابن عمارة وتفانيه في حبِّ الخير لفائدة اللُّغة والدِّين والوطن»؛ فإنَّه كلَّما وقع عجز ماديٌّ لجريدة «صدى الصَّحراء»، والشَّيء نفسه لجريدة «الإصلاح»، «**بسبب محاصرة الاستعمار لهما وترتبت مصاريف كبيرة على المطبعة وأراد البعض التَّنصُّل من ذلك(!)، الشَّيخ علي ابن عمارة المؤمن المخلص استطاع أن يضحِّي برزقه في سبيل المبدأ، إذ باع. جنان النَّخيل. الَّذي ورثه من أبيه وسدَّدَ المصاريف بشجاعة وإخلاص**»[17].

من مواقفه الإصلاحية في كتاباته:

أُبرزُ من خلال هذا الفصل مواقفَ الشَّيخ علي ابن عمارة الإصلاحيَّة، وجولاته في جدال المخالفين وتنوير التَّائهين، وإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، ممَّا يبيِّنُ أنَّه كان من أعمدة الإصلاح في «بسكرة» الزيبان وما حواليَها، كما يتَّضحُ من خلال ما أسوقُهُ أسلوبُ الشَّيخ في الكتابة:

❋ قال في مقالته: «قطع بدعة شنيعة بقرى الزَّاب»، نشرها له ابن باديس في «الشِّهاب» [العدد(97)، (ص9 ـ 10)]: 17 ذي القعدة 1345هـ/ 20 ماي 1927م]، وقال تحتها: «للعلاَّمة المرشد صاحب الإمضاء»:

«اعتاد الكثير من نساء الزَّاب «طولقة» وما حولها من القرى السَّفر للشَّيخ عبد الرَّحمن الأخضري وشدَّ الرِّحال لقبره على رأس كلِّ سنة مع بعض الرِّجال الَّذين لا همَّة لهم ولا مروءة، فتتهيَّأ النِّساء لذلك اليوم المشهود ويتزيَّنَّ بأفخر اللِّباس ويتطيَّبن بأذكى الرَّوائح!!

يوم عظيم حرُّه شديد وقعره بعيد، تختمر فيه عقول الزَّائرين والزَّائرات والرَّاقصين والرَّاقصات!!

(15) «الرسائل المتبادلة بين الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ محمود شكري الألوسي» (ص173) لمحمد بن ناصر العجمي.

(16) «الإصلاح» [العدد(07)، 7 نوفمبر 1929م]/ بواسطة مقال الأستاذ سليمان الصيد: «من تاريخنا الثقافي: الشيخ علي بن عمارة البرجي».

(17) جريدة «النصر» [الأربعاء 09 شعبان 1407هـ ـ 8 أفريل 1987م، (ص7)]، الأستاذ سليمان الصيد: «من تاريخنا الثقافي: الشيخ علي ابن عمارة البرجي».



يومٌ يرفع فيه التَّكليف وتسقط فيه أوراق الخريف، ضربُ طار وشطحٌ وبندير ومزمار.. ولا أزيدك أيُّها القارئ! بيانًا لهذه المناظر المخجلة المميتة للشُّعور المخدِّرة للأعصاب، وغيرها من البدع الَّتي يمجُّها السَّمع وتأباها الطَّبيعة ورضي بها أهل الأغراض، وألصقوها بالشَّريعة وصيَّروها جزءً منها لا يتجزَّأ في نظرهم حتَّى إنَّك لو أردت البحث معهم فيها أو مع أذنابهم لحكموا بفسقك وكفرك وزندقتك، قبَّح اللّه سعيهم وأغراضهم؛ لأنِّي اليوم لست بصدد تعداد البدع، ولأنَّ الأرض غير الأرض، والهواء غير الهواء.

كل هذا والعلماء ساكتون، صامتون، جامدون، ملجمون بلجام الدِّينار والدِّرهم، ويملؤون بطونهم من أيدي الَّذين ينتسبون لهذا الدِّين بالعمائم وفخفخة اللِّباس وشقشقة الكلام الفارغة، طهَّر اللّه منهم ساحة هذا الدِّين القويم، دين الفطرة الَّتي فطر اللّه النَّاس عليها وتبًّا لفعالهم...».

❊ وقد ردَّ الشَّيخ «علي بن عمارة» على الشَّيخ المولود الحافظي الأزهري في مقالةٍ طويلة نُشرت في «الشِّهاب» على أجزاء.

ذلك أنَّ الحافظيَّ رمى العقبيَّ بالتَّكفير، ونعى عليه أسلوبه الدَّعويَّ، في مقالة لهُ نشرها في «النَّجاح» [العدد (270)، (ص2-3)].

ومن الأخطاء الفاحشة أن يُسطِّر صاحبُ كتاب: «الشَّيخ المولود الحافظي، حياته وآثاره» (ص86)، كلامًا ينبئُ عن قصور بالغٍ في فهم وتصوُّرِ الخلاف بين الحافظي والعقبيّ، إذْ قالَ عن المناظرة بينهما:

«موضوع المناظرة يدور حول القصيدة العاشوريَّة الَّتي مدح فيها الشَّاعر الشَّيخ عاشور آل البيت وأثنى عليهم ممَّا جعل الشَّيخ العقبي يقول بكفر الشَّاعر وينعى عليه حبَّ آل البيت، فكتب الحافظي مقالاً بعنوان: القلم أحد اللِّسانين، احفظ لسانك تنج من العثرات، **كما كانت بينه وبين ابن عمارة مناظرات**» اهـ.

كلاَّ! إنَّ «عاشور» الَّذي لقَّبَ نفسَهُ: «كُلَيْب الهامل»، قال ما قالَ في مدح «ابن عبد الرَّحمن»، وقال عنه: «أنا لا أقول إنَّه عرش أو فرش كرسي أو سدرة المنتهى، بل أقول هو اللّه! هواللّه»؟!! إلى غيرها من كلماته الكفريَّة الَّتي تنضح بعقيدة الحلول والاتِّحاد -عياذًا باللّه!-، هذا؛ وعاشور يقرِّرُ فضل عصاة الأشراف بمثل قوله:

يأتون يوم الحشر مغفورًا لهم
من غير كسْبٍ بل على الشَّرف الأغر!»

فحاشا العقبي وإخوانه أن ينعوا على أحدٍ حبَّ آل البيت!

فالحافظي يريدُ الكفَّ عن هؤلاء وما يعتقدونه من الكفر! وإقرارَهُمْ عليه بالسُّكوت!!

وقد وقف إلى جنب العقبيّ جلَّةٌ من العلماء والكتَّاب منهم: الشَّيخ أبو يعلى الزَّواوي[18] - وكانت تربطه صداقة بالحافظي من أيَّام إقامتهما بمصر -.

وقد حَكَمَ بين الرَّجلين بعدلٍ وإنصاف؛ قال: «فبأيِّ وجه يردُّ على الشَّيخ العقبي؛ أبي ذر، ويدافع عن أصحاب الحلاَّج الغلاة الَّذين أهانوا العلم وابتذلوا الشِّعر وتلقَّبوا بالكلاب المصغَّرة وأباحوا للشُّرفاء أن يعملوا ما يشاءون...» اهـ.

معرفته الفضل لأهله:

كان «الشَّيخ علي بن عمارة»؛ ممَّن تصدَّى لتهجُّم الحافظي على العقبيّ، فقال في مقالته: «مهلاً يا عمي الحافظي»(3)[19] مُقَرِّرًا أفضل إخوانه العلماء

(18) في مقالته: «محاربة البدع/إلى طلبة العلم عموما والكتاب منهم خصوصا»/جريدة «**صدى الصحراء**»، العدد (12)، (ص2-3).
(19) «**الشهاب**»، العدد (161)، (ص9-11)، 6 ربيع الأول 1347هـ/ 23 أوت 1928م.



العاملين على الأمَّة الجزائريَّة:

«من أولي العزم في الجزائر الأستاذ الطَّيِّب العقبي وقد وصفه أبو يعلى بأنَّه أبو ذرٍّ وهو صادق في ذلك، العقبي رجل متفانٍ في حبِّ الخير والإصلاح.. مذهبه الصَّراحة لا ينافق ولا يداهن، وهو سلفيٌّ صميم، يبغض الشَّرَّ وأهله ويمقت الظُّلم والاستبداد كيفما كان نوعه، ومن أيِّ مصدر خرج، صرخ صرخة على الجزائر دوَّتْ لها الأرجاء غيرَ هيَّابٍ ولا وَجِل وأعانه على ذلك قومٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أَعِزَّاء النُّفوس لا تأخذهم في الله لومة لائم.

إذا بلغ الرَّضيع لهم فطاما

تخر له الجبابرة ساجدينا

أولئك هم رجال الإصلاح[20]...»..

من آثاره وآثار إخوانه المصلحين في نفوس الأمة الجزائرية:

■ ثمَّ يقول عن أثرهم الحسن في النَّاس:

«وقد أثَّرَ سعيهم في نفوس أبناء الجزائر تأثيرًا حسنًا فانتبهوا من نومتهم الثَّقيلة الطَّويلة، وصاروا لا يؤمنون ولا يصدقون إلاَّ بما يوافق ما صرَّح به القرآن أو نطقت به السُّنة ولا ينطق القرآن والسُّنَّة إلاَّ بما يصلح شأن الدِّين والدُّنيا، وصاروا يبغضون كلَّ طريق إلاَّ الطَّريق الَّتي سار عليها محمَّد ﷺ وأصحابه، وعرفوا أنَّ سبب انحطاطهم هو انحرافهم عنها، وتنبَّهُوا للغشاوة الَّتي جعلها الدَّجَّالون على الأعين من أنَّ صوابه خطأ وخطأه كفر؛ ليصدُّوا بذلك المؤمنين عن فهم كلام ربِّهم حتَّى يشتغلوا بخمرات أشياخهم، فيصبحوا بذلك غنم الشَّيطان وغنم الأشياخ وحبسًا لهما، وما غنمهما إلاَّ الخرافيُّون...» اهـ.

(20) ومنهم ـ لا محالةَ ـ المترجَمُ: الشيخُ «علي بن عمارة البرجي» نفسُهُ.

❊ وقد تعرَّض «الشَّيخ علي بن عمارة» لبعض كفريات «عاشور»، حينما كتبَ في «تفنيد إشاعة خاصَّة وإرشاد عام لبني الإسلام»[21]: «حول شائعة عدم وجوب الزَّكاة» على لسان أحد شيوخ طولقة، وأفاض في بيان «مكان هذا الرُّكن من أركان الدِّين»! وممَّا قاله:

«...حكم فيه [تعالى] بنفسه وبيَّن مصرفه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ [التوبة: 60] الآية

وهل كفانا هذا الحكم من الباري ـ جلَّ وعلا ـ وهل أذعنَّا إليه؟

كلاَّ ـ بل ادَّعى قوم أنَّ الزَّكاة مختصَّة بهم ولا تجوز لغيرهم...

لو عددتُ لك ـ يا أخي ـ ما نرى ونسمع من البدع والأحكام المخترعة لكفَّرني القوم.. رحماك يا رب!..

ولنقصَّ عليك شيئًا من المخترعات:

حلَّ بقرى الزَّاب رجلٌ يُدعى بعاشور أو كليب الهامل، فسأله بعضٌ بأنَّك ادَّعيت أنَّ ابن عبد الرَّحمن هو اللَّوح والكرسي؟! فأجابه بأن اللَّوح مخلوق والكرسيَّ مخلوق، بل ابن عبد الرَّحمن هو الله، هو الله، هو الله، كرَّرها ثلاثًا في ملإٍ من النَّاس وأنا أسمع!!

تأمَّلوا إخواني! وسنعود للرِّحلة العاشوريَّة إن شاء الله...»..

دعوته للتفاهم ونبذ الخلاف:

■ ثمَّ يُوَجِّهُ الشيخُ دعوةً خالصةً إلى الخاصّة لأجل التفاهم، ونبذ الخلاف، فيقول:

«إذًا؛ فلنوجه نداءنا إلى العلماء والأدباء والكُتَّاب... وأقول:

هلُمُّوا تَعَالَوْا نُلَبِّي الدَّعوة الدِّينيَّة، ونعقد الخناصر

(21) «الشهاب»، العدد (13)، (ص13 ـ 15)، 21 رجب 1344هـ/ 4 فيفري 1926م.



ونيّات القلوب على الرُّجوع إلى الحقيقة حيث كانت، وعلى التَّنازل لبعضنا في فهمها، وأن لا تأخذنا العزَّة النَّفسانيَّة والخرافات الشَّيطانيَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

وإذا تنازعنا في شيء فهذا كتاب اللّه تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ بين أيدينا، نردُّه إليهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، وبعد فهم هاته الآية لا تقبل حجَّة من يدلي بها من كلام والده أو جدِّه ما لم توافق القواعد الشَّرعيَّة، ويد اللّه مع الجماعة...». اهـ.

الشيخ يوضح سبب الخلاف ومنشأ الفتنة:

■ ثمَّ يبيِّنُ الشَّيخُ بصراحةٍ مَا هي أسبابُ الخلاف، ومَنْ هم مُوقِدُو الفتنة، فيقول:

«وأمَّا نحن اليوم؛ فقد اشتغل الكثير منَّا بالأباطيل والأكاذيب والعُجْب والكِبْر والزُّور والبهتان والتَّقليد الأعمى، ولا ننسى حبَّ استرقاق العباد بالرِّياسة الموهومة، إن لم نقل هي الطَّامَّة الكبرى والقاضية على مجد الإسلام، فباؤوا بخسران مبين، «وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى»، ولا تلمني - أيُّها القارئ - إن قلت: باؤوا بعمى البصائر والأبصار، ورجعوا القهقرى إلى السُّقوط والدَّمار...» اهـ.

ختم دروس التفسير:

كانت للشَّيخ خطبٌ ودروسٌ متواصلة يُلقيها في «جامع الشَّيخ محمَّد بن عزُّوز»، ومنها درسُ التَّفسير، الَّذي دام سنوات عدَّة، إلى أن كان يومُ الختم، والاحتفال العظيم الَّذي أقيم لمناسبته في 28 رمضان 1350هـ. وقد حضره جُلُّ أعيان البلد، وفي مقدّمتهم العلماءُ والمصلحون، وقد كتبتْ عنه [«النَّجاح» في العدد (1277)، الأحد 29 شوال 1350هـ/ 6 مارس 1932م/ (ص3)]، وألقى فيه إمام الجامع خطابًا حثَّ فيه الحاضرين على طلب العلم وشكر الأستاذ، وممَّا جاء فيه:

«...وفي الختام أقدِّم خالص تشكُّراتنا القلبيَّة لحضرة أستاذنا الشَّيخ علي بن عمارة؛ كم له مزيَّة على الأمَّة المحمديَّة، وكم قلوب أزال صدأها، وكم مشكلة حلَّ خبيها وأجلاها؟!

فهذا تفسير الكتاب المجيد الَّذي سارت بفضائله الرُّكبان؛ قد أبدع فيه بفصاحته يفوق سحبان، ولا غرابة أن يفتخر به البرج وما حوله من القرى والمداشر.

وأنتم أيُّها السَّادات! أهالي البرج؛ فقد حزتم فضلاً كبيرًا على غيركم بمجاورة هذا الرَّجل العظيم الَّذي لا زال يسعى في مصالحكم، ما دمتم في طاعته، أحيانا اللّه وإيَّاكم حياة العزِّ والهناء والسَّلام» اهـ.

مصاب المصلحين بحادثة وفاته الأليمة:

■ كتبت «النَّجاح» [العدد (1509) الأحد 15 شعبان 1352هـ/ 3 ديسمبر 1933م/ (ص2)]، تحت عنوان: «إنا للّه وإنَّا إليه راجعون، تعدَّدَتِ الأسباب والموت واحد»:

«نَعَتْ لنا أخبار «برج طولقة» وفاةَ العالم الألمعي الشَّيخ علي بن عمارة المدرِّس بالبرج، وقد كانت وفاته مدهشة ومؤثِّرة للغاية؛ لما كان عليه المرحوم من الكمال(!) وطهارة الضَّمير وحسن الأخلاق.

كانت وفاته فجئيَّة ومؤثِّرة!

وسببها خلافٌ حدث بينه وبين بعض الأوباش من صغار سائقي السَّيَّارات في شأن حمل بعض السِّلع من «البرج» إلى «بسكرة»؛ فجاهره صاحب السَّيَّارة بعدم



قبول الحمل مدَّعيًا بأنَّه لو لم تكن الضَّرورة لما جاء إليه[22].

فكانت عاقبة الأمر أن حَمَلَ صاحب السَّيَّارة على المرحوم بِمُدْيَة فاستشهد [إن شاء الله تعالى][23].

حزن لهذا الخبر جميع أهل النَّاحية ومن يعرف الفقيد وما عليه من المكانة العلميَّة والأخلاقيَّة؛ فقد كَرَعَ من مناهل العرفان بالمعهد الزَّيتوني، وأحرز على شهادة «التَّطويع»، ورجع يَبُثُّ العلم بواسطة دروس لا تنقطع، وقد امتاز المرحوم بصفاء الضَّمير، وكرم السَّجايا، والانقطاع للعلم ونشره.

فنحن إزاءَ هذه الرَّزيَّة العلميَّة؛ نقدِّم تعازينا الحارَّة لرجال العلم وأقاربه وذَويه، راجين لهم الصَّبر والسُّلوان على القضاء والقدر الَّذي لا مردَّ له.

فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

■ وكتبت «الصِّراط» [العدد (12) الاثنين 16 شعبان 1352هـ/ 4 ديسمبر 1933م/ (ص5)] تحت عنوان: «رزء فادح وخطب أليم!»:

«فُجِعَتْ الكتلة الإصلاحيَّة بانهيار ركن من أركانها بوفاة العلاَّمة المصلح الشَّيخ علي بن عمارة البرجي، الَّذي وافاه الأجل المحتوم يوم السَّبت الفائت في بلده «برج طولقة» على يد شقيٍّ دفع به الجهل على أن يستلَّ خنجره ويغمده في بطن الأستاذ لشجار بسيط على حمل بضاعة، من «البرج» إلى «بسكرة»(!) وهكذا الجهل يُعمي صاحبه ويرمي به في أسفل دركات الشَّقاوة من غير تدبُّر في عاقبة ما يصدر منه، ومن أين للجاهل أن يتدبَّر عواقب الأمور؟!.. ويا لله لهذه الطَّائفة المصلحة كم تنزل بأفرادها الضَّربات القاسية من يد أبناء جلدتها الجاهلين المخدوعين ومن يد غيرهم!!!

لقد كان الأستاذ المرحوم الشَّيخ علي بن عمارة من حملة العلم الصَّحيح والتَّفكير النَّاضج والغيرة المتَّقدَة.

رحل إلى تونس في طلب العلم؛ فمكث فيها ما شاء الله.

ولَمَّا حصل على شهادة العالميَّة من جامع الزَّيتونة المعمور؛ رجع إلى وطنه وكلُّه أمل، وكلُّ حركاته نشاط وعمل، حتَّى إذا بدأت الحركة الإصلاحيَّة في شكلها الحاضر؛ بدأ معها بعلمه وفكره وقلمه وماله.

فكانت له مواقف شريفة تشهدُ له بالوطنيَّة الصَّادقة والإخلاص المتناهي.

وها هو يُقضى شهيدًا [إن شاء الله تعالى] في وقت كانت الحاجةُ إلى صراحته وصلابته في الحقِّ شديدة.

فعزاءً أيُّها الكتلة المصلحة الكريمة! في هذا المصاب الجسيم.

وإلى والديه الكريمين وأولاده البررة نتقدَّم بتعزيتنا الحارَّة، ورحمة الله لتلك الرُّوح الطَّاهرة المجاهدة».

■ وقد نقل الأستاذ الصّيد سماعًا: «أنَّ الشَّيخ عبد الحميد بن باديس لَمَّا سمع بمقتل الشَّيخ علي بن عمارة تألَّم كثيرًا وحزن حزنًا شديدًا، وكتب عنه مقالاً : قال فيه:

«مات الشُّجاع ونحن في حاجة إلى الشُّجعان أمثاله، مات الكريم ونحن في حاجة إلى [الكرام] أمثاله، مات الصَّريح ونحن في حاجة إلى الصَّراحة والصِّدق... الخ»[24].

(22) قال الأستاذ الصيد بشأن هذا الشِّجار: «والشيخ 0 الَّذي تربى على الحزم في الأمور وصاحب جدٍّ في أعماله لا يداري عندما يرى الأمور معوجّة وغير مستقيمة...» اهـ.

(23) قال الأستاذ الصيد بشأن هذه الحادثة: «فخرَّ الشيخ على الأرض شهيدًا [إن شاء الله] بالقرب من مسجد الرحبة في برج بن عزوز...» اهـ.

(24) ذكر الأستاذ أنَّه بحث عن كلام ابن باديس هذا في «الشهاب»، فلم يجدهُ! وجوَّزَ أن يكون كتبه في «الصراط»؟

قلتُ: أمَّا مقالُ «الصراط»، فقد نقلته قريبًا، وعندي شكٌّ أهو ممَّا كتبه محرر «الصراط»: الشَّيخ السَّعيد الزَّاهري، ويشاركه في ذلك الطَّيِّب العقبي، أو هو لرئيس جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين؛ الشَّيخ ابن باديس، إذِ «الصِّراط»، جريدةُ الجمعيَّة ولسانُ حالها؟

جزء فيه
الكَلام على ختان النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم
لابن العديم (ت: 660 هـ)

اعتنى به: توفيق عمروني

إنَّ ممَّا لا شك فيه أنَّه لم تعتن أمَّة بنبيِّها كما اعتنت الأمَّة الإسلاميَّة بنبيِّها ﷺ، فلم تترك شيئًا يتعلَّق بسُنَّته وأفعاله وأقواله وسيرته وشمائله، أو بوصفه الخلقي والخلقي إلاَّ وتتبَّعوه ونقلوه وأحاطوا به علمًا، وصنَّفوا مئات الكتب والأجزاء في ذلك.

ومن أراد أن يقف على عدد ذلك؛ فليرجع على سبيل المثال إلى كتاب «معجم ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ» للدُّكتور صلاح الدِّين المنجد، ففيه ما يُقارب (2314) اسم كتاب.

ولا يعني ذلك أنَّه استقصى جميع المؤلَّفات، بل إنَّ كتابه يحتاج إلى ذيول وحواش.

والمقصود أنَّ علماءنا لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة تتعلَّق به ﷺ ولو كانت قبل بعثته إلاَّ واهتمُّوا بها والتفتوا إليها.

* ومن ذلك؛ كلامهم في ختانه ﷺ؛ وصاروا فيه إلى ثلاثة أقوال:

- فمنهم من ذهب إلى أنَّه ولد مختونًا.
- ومنهم من ذهب إلى أنَّ جبريل ﷺ ختنه يوم شقَّ صدره.
- ومنهم من ذهب إلى أنَّ جدَّه عبدَ المطَّلِب هو الَّذي ختنه على عادة العرب.

وفي هذا الجزء بيان ضعف جميع ما ورد في ذلك من حيث الصِّناعة الحديثيَّة.

وإن كان المؤلِّف يميل إلى القول الأخير على ما في النَّقل من ضعف، حيث قال: «وهو على ما فيه أشبه بالصَّواب وأقرب إلى الواقع»[1].

* سبب تأليف الكتاب:

هو أن المصنف رحمه الله: كانت له فتيا مختصرة في هذه المسألة قرر فيها مذهبه بإيجاز، ثم بعد فترة وقع عنده جوابٌ لأحد فقهاء عصره - وهو العلامة أبو سالم محمَّد بن طلحة بن محمَّد بن الحسن، كمال الدِّين القُرشي النَّصيبي الشَّافعي، المفتي الرَّحَّال (582 - 652هـ)[2] -؛ قرَّر فيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ ولد مختونًا.

وفي ثنايا جوابه عرَّض بابن العديم ومن وافقه على الفتيا، فأراد ابن العديم أن يدافع عن قوله، ويبين ما في جواب خصمه من السقط والغلط، وما وقع فيه من الوهم، فحرر هذا الجزء.

● قال ابن القيِّم في «زاد المعاد» (1/82):

«وقد وقعت هذه المسألة بين رجلين فاضلين، صنَّف

(1) نقله عنه ابن القيم في «تحفة المودود» (ص206)، ومال إليه ابن عبد البر والذَّهبي والألباني؛ انظر: «الاستيعاب» (1/38)، و«تاريخ الإسلام» (1/28)، و«الضَّعيفة» (13/587).
وفي «السُّنَّة» للخلال (202) سئل الإمام أحمد هل ولد النَّبيُّ ﷺ مختونا؟ قال: الله أعلم؛ ثم قال: لا أدري.

(2) له ترجمة في «السِّير» (23/293 - 294)، و«شذرات الذَّهب» (5/259).





أحدُهما مصنَّفًا في أنَّه ولد مختونًا، وأجلَبَ فيه من الأحاديث الَّتي لا خِطام لها ولا زِمام، وهو كمال الدِّين ابن طلحَة، فنقضه عليه كمال الدِّين ابن العَديم، وبيَّن فيه أنَّه أ خُتِنَ على عادة العرب، وكان عموم هذه السُّنَّة للعرب قاطبة مغنيًا عن نقلٍ معيَّن فيها، والله أعلم».

* نسبة الكتاب للمؤلف:

لا يراود الباحث المتأمِّل أدنى شكٍّ في نسبة هذا الجزء لابن العديم؛ لكونه يذكر أنَّه كتب في زمن الملك يوسف بن غازي الَّذي كان معاصرًا له.

وكون شيوخ أسانيده هم أنفسهم الواردون في كتابه «بغية الطَّلب».

ثمَّ اشتهر بين العلماء قديمًا أنَّ كمال الدِّين ابن طلحة ألَّف كتابًا في هذا الموضوع، وأنَّ الَّذي نقضه عليه، هو العلاَّمة كمال الدِّين بن العديم.

ونقل نتفًا من هذا الرَّدِّ الإمام ابن القيِّم في «زاد المعاد» (1/82)، وفي «تحفة الودود» (ص203-206)، وكذا الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (11/89)، وفي «لسان الميزان» (5/309).

كما جاء -أيضًا- في الورقة الأخيرة للمخطوط ما يلي:

«قال ابن العراقي: وقد استفتي عن هذا بحلب في حدود الخمسين والسِّتِّمائة، فصنَّف فيها شخص يُعرف بابن طلحة تصنيفًا، حكى فيه عن أبي عبد الله التِّرمذي الحكيم أنَّه وُلد مختونًا، وتعقَّبه العلاَّمة ابن العديم صاحب «تاريخ حلب»، فصنَّف فيه تصنيفًا سمَّاه «المُلحة في الرَّدِّ على ابن طَلحة»، فأبدع وأجاد، ذكر فيه اختلاف الآثار في كونه وُلِدَ مختونًا، أو ختنه جدُّه عبد المطلب، أو ختنه جبريل، وذكر ما ورد في ذلك من الآثار، وضعَّفها كلَّها، وأنَّه لا يثبت في هذا شيءٌ من ذلك، والله أعلم»[3].

(3) وردت هذه الفقرة في «إمتاع الأسماع» للمقريزي (10/318).

لذلك كلّه جزم كلٌّ مِنْ الشَّيخ العلاَّمة الألباني في «المنتخب من مخطوطات الحديث» (ص8، 110) -وإليه يعود الفضل في اكتشاف هذا المخطوط-، وعلي السّواس في «فهرسته لمخطوطات الظَّاهرية» بنسبة الكتاب لابن العديم.

لكن الإشكال الوارد هو أنَّ النُّقول الَّتي نقلها ابن القيِّم وابن حجر من الكتاب غير موجودة في هذا الجزء؟!

فالَّذي يغلب على الظَّنِّ أنَّ الَّذي بيْن أيدينا إنَّما هو مختصرٌ أو مُنتقى من الكتاب الأصل الموسوم بـ«المُلْحَة في الرَّدِّ على ابن طلْحَة» كما ورد في التَّقريظ في آخر المخطوط، وفي «طرح التَّثريب» (1/22)، وسمَّاه بذلك الحافظ ابن حجر في الموطنين المذكورين آنفًا.

كما أنَّني لا أستطيع الجزم إن كان هذا الاختصار أو الانتقاء من وضع صاحب الأصل أم أنَّه من غيره؟ فالله أعلمُ بحقيقة الحال.

تنبيه:

وقع للمناوي وَهْمٌ أو بالأحرى وَهْمَان؛ في كتابه «فيض القدير» (1/151) في تسمية الكتاب حيث سمَّاه بـ «اللَّمْحَة في الرَّدِّ على ابن طلحة»، ثمَّ في نسبته؛ حيث نسبه لابن القيِّم : ؛ وتبعه على هذا الوهم الشَّيخ بكر أبو زيد : في كتابه «ابن القيِّم؛ حياته وآثاره» (ص187).

* وصف المخطوط:

وهي نسخة مصوَّرة بالجامعة الإسلاميَّة بالمدينة النَّبويَّة تحت رقم: (971)، من نسخة خطِّيَّة مصدرها المكتبة الظَّاهريَّة[4].

وتقع في خمس ورقات؛ في الورقة الأولى عنوان الكتاب وكُتِب كالتالي:

(4) تقع أوَّل مجموع برقم (3765 عام) [«مجاميع» (1/28)] فيه (22) رسالة متنوِّعة؛ انظر: فهرس ياسين السواس (ص144-146).

«جزء فيه الكلام على ختان النَّبيِّ ﷺ».

ولم يرد معه اسم المؤلِّف.

وفي الورقة الأخيرة كتب كلام ابن العراقي المذكور آنفًا؛ وتحته فقرة لم أتمكَّن من قراءتها.

وكتبت بخطٍّ مقروء، ولم يذكر فيها تاريخ نسخها، ولا اسم النَّاسخ.

* ترجمة موجزة للمصنف[5]:

هو العلاَّمة المحدِّث المؤرِّخ: جمال الدِّين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة اللّه بن أبي جَرَادَة؛ كمال الدِّين ابن العَديم العُقَيلي الحَلَبي الحَنفي.

ولد بحلب سنة (588هـ/1192م)؛ من بيت عِلْم ورياسة.

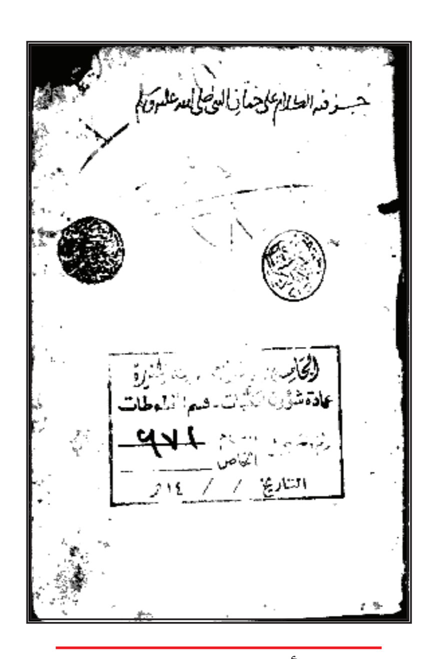
سمع الحديث وحدَّث وتفقَّه وأفتى ودرَّس وصنَّف، وكان إمامًا في فنون كثيرة، وكان مليح الخطِّ، حسن القراءة، كريم الأخلاق، ثقةً فاضلاً،فاق كثيرًا من أهل زمانه فضلاً ونبلاً ورأيًا وحزمًا وذكاءً وبهاءً وكتابةً وبلاغةً.

وولي خمسة من آبائه على نسق القضاء؛ كما أنَّ مِنْ ذرِّيَّته وأقاربه جماعة من الأعلام.

ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق.

وتوفي بالقاهرة سنة (660هـ/1262م).

من أشهر تصانيفه: «بغية الطَّلب في تاريخ حلب» وهو يسوق فيه الأحاديث بأسانيده شأنه شأن المحدثين في تواريخهم، ثمَّ انتزع منه كتابًا آخر سمَّاه «زبدة الطَّلب في تاريخ حلب» وكلاهما مطبوع.



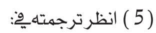
الورقة الأولى من صورة المخطوط



الورقة الثانية من صورة المخطوط

---

(5) انظر ترجمته في:
«معجم الأدباء» (2068/2)، و«العبر» للذَّهبي (300/3)، و«النُّجوم الزَّاهرة» (208/7)، و«البداية والنِّهاية» (273/13)، و«شذرات الذَّهب» (302/5)، و«تكملة الإكمال» (35/2)، و«الأعلام» للزركلي (40/5).





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه الإعانة، اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا.

الحمد لله الَّذي بصَّرنا من العماية، واختصَّنا بالتَّوفيق والهداية، ورزقنا نوعَي الرِّواية والدِّراية، أحمدُه حمدًا لا ينتهي حامدُه إلى غاية، وأشكرُه على نعمِه الَّتي لا أمَدَ لها ولا نهاية، وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريكَ له؛ شهادةً تكون لنا من النَّار وقايةً، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسوله، الَّذي أرسله الله تعالى إلى العالمين آيةً، فزحزَح به الباطلَ، وأزال الغوايَةَ، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابِه المخصُوصين بالولايةِ، ما هبَّت ريحٌ، وخفقَت رايةٌ؛ وبعد:

فإنَّه أُحضرت إليَّ فُتيا في بعض الأحيان، تتضمَّن السُّؤال عن النَّبيِّ ﷺ؛ هل وُلِد غيرَ محتاج إلى الختان أم ختَنَهُ الملَك لمَّا شقَّ صدرَه، ووضَع فيه الإيمانَ؟

فظننتُ أنَّ السَّائل عن ذلك بعضُ العوامِّ، فأجبتُ بأنَّه لم يصحَّ في ذلك شيءٌ عنه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

كُلاًّ منَ الأمرين نُقل، فما ثبتَ عند أهل الحديثِ ولا قُبل:

أحدُهما: أنَّ جبريل ﷺ ختنه حين شقَّ صدرَه.

والآخرُ: أنَّه وُلد مختونًا خِلقةً وفطرةً.

وأحدُ النَّقلين غيرُ صحيح، وراويه عند الطَّعن جريح.

والآخرُ غريبٌ غير معروف، وهو على أبي بَكرةَ موقوف.

وقصدتُ بتركي في الفتيا ذكر النَّقلين، وبالاختصار في جوابي أمرين:

أحدهما: الجريُ على قاعدة العلماء المتقدِّمين، والسَّلف الصَّالح منَ المُفتين أنَّهم لا يزيدون في أكثر فتاويهم على لا أو نعم.

والثَّاني: أنَّ العامَّة لا يميِّزون بين الصِّحَّة في النَّقل والسَّقم، وإذا اختلفت الرِّواية عندهم في المنقُول، مع قَصُر أفهامهم والعقول، ربَّما دخلهم شكٌّ في الأمور النَّقلية، وظنُّوا أنَّ المنقولات كلَّها على ذلك مبنيَّة.

فرأيتُ الاختصارَ في الفُتيا أولى، والاقتصارَ على ما يحصُل به الغَرض أحسن قولاً.

ثمَّ بلغَني بعدُ أنَّ هذه المنازعةَ وقعت بين يدي مولانا السُّلطان الملك النَّاصر صلاح الدُّنيا والدِّين، سلطانِ الإسلام والمسلمين، ناصرِ الحقِّ بالبراهين، أبي المظفَّر يوسُف بن الملك العزيز محمَّد بن الملك الظَّاهر غازي ابن الملك النَّاصر يوسف بن أيُّوب ناصر أمير المؤمنين[6] ـ أعزَّ الله سلطانَه، ونصرَ أعوانَه، ورفع به رتبةَ العلم، وأعلى شأنَه، ولا زالت العلومُ في أيَّامه مرفوعةَ المنار، محمودةَ الآثار، محميَّةَ الأرجاء والأقطار، محجَّلةً بطيب عَرْفها، ودَرِّ غرفها، أَرِجَ القُطُر، وجُودَ القطر، ولافتئ مجلسُه الكريم مشحونًا بالعلماء وأهلِ الرُّتَب، معمورًا بمذاكرة العلم والأدب، مقصودًا لأولي التَّحيَّة منهم والطَّلب ـ.

وأُحضرَ إليَّ جوابٌ كتبَه إليه بعضُ الفقهاء المقيمين تحتَ ظلِّه الظَّليل بالشَّهباء[7]، وزاد في الجواب على ما في السُّؤال، وبسَط القولَ في الخطاب وأطال، وابتدأ في الكلام بأن قال: فأجبتُه إلى مأموله على سبيل الاختصار، وأسعفتُه بمسؤوله من غير جنُوح إلى الاعتذار، عالمًا أنَّ إجابة من يُسألُ شيئًا من العلم لازمةٌ بالاضطرار؛ فإنَّه

(6) الملك النَّاصر صاحب الشَّام، ولد بحلب سنة (627هـ)، وقتل سنة (659هـ)؛ انظر ترجمته في: «فوات الوفيات» (4/361).

(7) المقصود بالشَّهباء مدينة حلب.



قد ورَدَ في الأحاديث النَّبويَّة أنَّ: «**مَنْ سُئل علمًا فكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله يَوْمَ القيامة بلجَام منَ النَّار**»[8].

ثمَّ رأيتُ في جوابه عدَّة أوهام لا تخفَى عن أُولي البصائر والأفهام، وقد استعظمَ ما أتى به من الكَلام، وأشار إلى أنَّه أنفق في التَّطَلُّع إلى العلوم سائرَ الأيَّام، معرِّضًا بي وبمَنْ وافقني في الفُتيا من العلماء الأعلام.

فابتدَرتُ له عند ذلك مُباريًا، وانتصبتُ لغرَضه راميًا، وقلتُ مخاطبًا له ومناديًا: «أَذْكَرتَني الطَّعنَ وكنتُ ناسيًا»[9]، إن كتمتُ ذلك فأنَا بلجام منَ النَّار مُلْجَم، والبادي بانتقاص غيره أظلَم.

وها أنا أشرَعُ في ذكر الخبرَيْن، وإيرادهما وسَوْقهما على ما جاءت به الرِّواية بإسنادهما، وتَبْيين وجه السَّقَم فيهما والضَّعْف، وتقريبِ ثَمرة الجَنى منهُما عند القَطف؛ لأنَّ الإسناد في الحديثِ، مميِّزٌ للطَّيِّب منَ الخبيث.

فقد أخبرنَا الشَّيخ الإمام الزَّاهد الوليُّ أبو محمَّد عبد الرَّحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي قال: أبنا[10] الحافظ أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد الأَشيري[11] قال: أنبأني القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض قال: ثنا القاضي أبو عبد الله التَّميميُّ، والأديبُ أبو عليٍّ النَّحوي سماعي عليهما، قالاَ: حدَّثنا الفقيه أبو عبد الله ابن سَعْدُون، قال: ثنا أبو بكر الغازي، [قال: أخبرنا أبو عبد الله بن البيِّع[12]، أخبرنا أبو العبَّاس السَّيَّاري][13] قال: ثنا أبو المُوَجِّه محمَّد بن عمرو قال: ثنا عبدان قال: سمعت عبد الله بن المبارك : يقول:

«**الإسنادُ من الدِّين؛ لولا الإسنادُ لقال مَنْ شاءَ ما شاء**»[14].

ثمَّ أُتبع ذلك بما أورده المجيبُ من السَّقْط، وأبيِّن الصَّواب في ذلك من الغلَط، وبعَون الله تعالى وتوفيقه أستعدُّ، ومن فضلِه وكرمِه أستمدُّ، وهو حسبي ونِعْمَ الوكيل.

◪ ◪ ◪

■**أمَّا الخبر الواردُ بأنَّ جبريل ختَنَه** ؛ فأخبرنا به الشَّيخ الصَّالح الثَّبت الثِّقة زَيْنُ الأمناء أبو البركات الحسَن بن محمَّد بن الحسن الشَّافعي [..][15] الجامع بدمشق، قال: أبنا عمِّي الحافظ أبو القاسم عليُّ ابن الحسن بن هبة الله الشَّافعي[16]، قال: أبنا أبو القاسم هبة الله بن عبد الله الواسطي، قال: أبنا أبو بكر الخطيب، قال: أبنا القاضي أبو القاسم عبد الواحد ابن محمَّد بن عثمان البَجَلي قال: أبنا جعفر بن محمَّد ابن نُصَير الخَلَدي، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن سليمان، ثنا عبد الرَّحمن بن عُيَيْنَة البصري، ثنا عليُّ بن محمَّد

---

(8) أخرجه أحمد (7571)، وأبو داود (3658)، والتِّرمذي (2649)، وابن ماجه (261)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا بنحوه؛ وقال التِّرمذي: «حديث حسن»، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (6284): «صحيح».

(9) مثل تضربه العرب في تذكر الشَّيء بغيره؛ انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (463/1)، و«مجمع الأمثال» (279/1).

(10) رمز يراد به أخبرنا، وهو اصطلاح طائفة من المحدثين، انظر «فتح المغيث» (85/3).

(11) وقع في الأصل: «الأشتري» وهو تصحيف؛ والصَّواب ما أثبته، وهو العلاَّمة الفقيه المالكي، وكان عالمًا في الحديث وعلله، وبارعًا في النَّحو واللُّغة؛ توفي سنة (561هـ)؛ انظر: «السِّير» (466/20)، و«شذرات الذَّهب» (245/4)؛ وللفائدة: فإن نسبة الأشيري إلى «أشير» المدينة الَّتي تقع جنوب شرق الجزائر العاصمة، وتبعد عنها بحوالي (150 كلم).

(12) وهو الحاكم صاحب «المستدرك»، و«معرفة علوم الحديث» وغيرهما.

(13) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل، واستدركته من «الإلماع».

(14) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص40)، والقاضي عياض في «الإلماع» (ص194)، ومسلم في «المقدمة» (9/1)، والترمذي في «العلل الصغير» (4023)، والخطيب في «الكفاية» (ص393)، وفي «تاريخه» (165/6)، والذَّهبي في «السِّير» (244/17)؛ وفي بعض طرقه: «ولكن إذا قيل له: من حدَّثك؟ بقي»؛ قال عبدان: ذكر هذا عند ذكر الزَّنادقة، وما يضعون من الأحاديث».

(15) كلمة مطموسة.

(16) هو الحافظ الإمام الكبير المعروف بابن عساكر.



المدائني السُّلَمي، ثنا مَسْلَمة[17] بن مُحارب بن سَلْم ابن زياد عن أبيه عن أبي بكرة Ç:

«أنَّ جبريل o خَتَن النَّبيَّ أ حين طهَّر قلبَه»[18].

فهذا موقوف على أبي بكرة.

وقد ورَد حديثُ شقِّ الملَك صدرَ النَّبيِّ أ من طُرق متعدِّدَة مرفوعًا إلى النَّبيِّ أ، ولم يُذكر في شيء منها أنَّه ختَنَه؛ فكانَ هذا الحديثُ غريبًا، وإن كانَ رجالُه أثبتَ من رجال الحديثِ الَّذي ذُكر فيه أنَّه وُلِدَ مختونًا.

وقَد ذكَر المجيبُ في جوابه أنَّه لم يَرد في هذا المعنَى شيءٌ، وقد سُقْنا ما ورَدَ فيه كما ترى.

○○○

وأمَّا الخبَرُ الواردُ بأنَّه وُلد مختونًا أ؛ فأخبرنا به أبو القاسم عبد الصَّمد بن محمَّد بن الحَرَسْتَاني قاضي القضاة بدمشق قراءةً عليه، قال: أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن المسلم الفقيه، أبنا أبو نَصْر الحسين ابن محمَّد بن أحمد بن جُمَيْع الغسَّاني، ثنا أبو حفص عمر بن موسى بن هارون بن القَفَنْدَر بالمِّصِّيصَة، ثنا جعفر بن عبد الواحد قال: قال لنا صفوان بن هُبَيْرَة ومحمَّد بن بكر البُرْسَاني عن ابن جُريج عن عطاء عن ابن عبَّاس È قال:

«وُلِد النَّبيُّ أ مسرورًا مختونًا»[19].

وهذا الحديثُ لا يصِحُّ؛ فإنَّ راوِيَه عن صَفوان ومحمَّد بن بكر أبو عبد الله جعفر بن عبد الواحد ابن جعفر بن سليمان بن عليِّ بن عبد الله بن العبَّاس القاضي الهاشمي، قال فيه القاضي عبدُ الغَنيِّ ابن سَعيد الحافظ[20] في كتاب «القُضاة»: «هو صاحب غرائب وعجائب ينفرد بها»؛ وقال فيه الحافظ أبو أحمد ابن عدي: «وجعفر هذا يروي الموضوعات عن الثِّقات، ويسرق الحديث»[21].

وأخبرنا أبو حفص عمر بن محمَّد ابن طَبَرْزَد البَغدادي بحَلَب، أبنا أبو القاسم عليُّ ابن طراد الزَّيْنَبي قراءةً عليه وأنا أسمَع، أخبرنا إسماعيل بن مَسْعَدة، أبنا حمزة بن يوسف قال: سُئِل الدَّارَقُطْنيُّ : عن جعفَرَ ابن عبد الواحد الهاشِمي؛ فقال: «كذَّابٌ يضعُ الحديث»[22].

وأنبأنا نَصر بن أبي الفَرَج بن عليٍّ الحُصْري، أبنا أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن عليٍّ الأسدي، أبنا الحافظ أبو الوليد يوسُف بن عبد العزيز بن يوسف ابن إبراهيم اللَّخْمي، أبنا الخطيب أبو محمَّد عبد الرَّحمن ابن عبد العزيز الشَّاطبي، أبنا أبو عمر ابن

(17) في بعض المصادر «سلمة».

(18) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (3/410)، وأبو نُعيم في «دلائل النُّبوَّة» (93)، والطَّبراني في «الأوسط» (5821)، وقال: «لا يروى هذا الحديث عن أبي بكرة إلاَّ بهذا الإسناد، تفرَّد به عبد الرَّحمن بن عيينة».
وقال الهيثمي في «المجمع»: «فيه عبد الرَّحمن بن عيينة وسلمة ابن محارب، ولم أعرفهما؛ وبقية رجاله ثقات».
وقال الذَّهبي: «هذا منكر»، وقال ابن كثير: «وهذا غريب جدًّا»؛ وقال الألباني: «فالإسناد ضعيفٌ لا تقوم به حجَّة، والمتن منكر؛ لأنَّ قصة تطهير قلبه! قد صحَّت من طرق عنه أ، ولم يُذكَر في شيء منها ختنه أ»؛ انظر: «تاريخ الإسلام» (1/28)، و«البداية والنِّهاية» (2/325)، و«الضَّعيفة» (13/585).

(19) أخرجه ابن جُميع الصَّيداوي في «معجم شيوخه» (ص: 336)، وابن عدي في «الكامل» (2/155)، وابن عساكر في «تاريخه» (3/411).

(20) هو الإمام الحافظ الحجَّة النَّسَّابة، محدِّث الدِّيار المصريَّة، أبو محمَّد الأزدي المصري، صاحب كتاب «المؤتلف والمختلف» توفي سنة (409هـ)؛ وغالب الظَّنِّ أنَّ كتابه المذكور في عداد التُّراث المفقود، انظر ترجمته في «السِّير» (17/268).

(21) «الكامل» (2/155)، وساق له جملة من المرويَّات، ثمَّ قال: «كلُّها بواطيل، وبعضها سرقه من قوم، وله غير هذه الأحاديث من المناكير، وكان يتَّهم بوضع الحديث».

(22) «سؤالات حمزة بن يوسف السهمي للدَّارقطني» (ص188).

عبد البَرِّ النَّمري : قال: «وقد رُوي أنَّ رسولَ الله أ وُلِد مختونًا من حديث عبد الله بن عبَّاس عن أبيه العبَّاس ابن عبد المطَّلب È قال: «**وُلِدَ رَسُولُ اللهِ أ مختُونًا مَسْرُورًا** - يعني مقطوعَ السُّرَّة - فأعجَبَ ذلكَ جدَّه عبدَ المطَّلب، وقال: لَيَكُونَنَّ لابْنِي هَذا شَأنٌ عَظِيمٌ»[23].

قال أبو عمر بن عبد البر: وليس إسناد حديث العبَّاس هذا بالقَائم»[24].

وقد روي موقوفًا على ابن عُمَر ولا يثبُت أيضًا؛ أخبرنا به أبو البركات بن محمَّد الشَّافعي، أبنا أبو القاسم عمِّي قال: أبنا أبو مسعود العَدْل، أبنا أبو عليّ الحدَّاد، أبنا أبو نعيم الحافظ، ثنا أبو الحسن أحمد ابن محمَّد بن خالد الخطيب المُلَّحَمي، ثنا محمَّد بن محمَّد ابن سليمان، ثنا عبد الرَّحمن بن أيُّوب الحِمْصي، ثنا موسى بن أبي موسى المقْدسي، حدَّثني خالد بن سَلَمة عن نافع عن ابن عمر È قال:

«**وُلِدَ النَّبيُّ أ مَسْرُورًا مختُونًا**»[25].

ومحمَّد بن محمَّد بن سُليمان هو أبو بَكر البَاغَنْدِي ضعيفٌ.

أخبرنا عليُّ بن طراد[26]، أبنا أبو القاسم الإسماعيلي، أبنا حمزة بن يوسف قال: «سألتُ أبا الحسَن عليَّ بنَ عمَر بن مَهدي[27] عن محمَّد بن محمَّد ابن سُليمان البَاغَنْدي؛ فحكى عن الوَزير أبي الفَضْل ابن حِنْزَابَة[28] حكايةً، قال الشَّيخُ حمزة بن يوسُف: ثمَّ دخلتُ مِصْرَ، وسألتُ الوزير أبا الفَضل جعفَر بن الفَضْل عن الباغندي هذا، وحكيتُ له ما كنتُ سمعتُ من الدَّارقطني، فقال لي الوزير: لحقتُ الباغندي محمَّد ابن محمَّد بن سليمان وأنا ابنُ خمسِ سنين، ولم أكُن سمعتُ منه شيئًا، وكان للوزير الماضي : حُجرتان: إحداهما[29] للباغندي يجيئه يومًا ويقرَأُ له؛ والأخرى لليَزيدي؛ قال أبو الفضل: سمعتُ أبي يقول: كنتُ يومًا مع الباغندي في الحجرة يقرأ لي كُتُبَ أبي بكر بن أبي شَيْبَة، فقام الباغندي إلى الطَّهارة، فمددتُ يَدي إلى جُزْء من حديث أبي بكر بن أبي شيبة، فإذا على ظَهره مكتوبٌ: «مُرَبَّع»[30] والباقي محكُوكٌ، فرجع الباغندي ورأى الجزءَ في يدي فتغيَّر وجهُه، وسألتُه، فقلتُ: أَيْش هذا مُربَّع؟ فغيَّر ذلكَ ولم أفطن له؛ لأنِّي أوَّلَ ما كنتُ دخلتُ في كَتَبَةِ الحديث، ثمَّ سألتُ عنه؛ فَإذا الكتابُ لمحمَّد بن إبراهيم مربَّع سَمِع من أبي بكر بنِ أبي شيبةَ،

(23) أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (1/103)، وابن عساكر في «تاريخه» (3/411،80)، وأبونعيم في «الدَّلائل» (92)، والبيهقي - أيضًا - في «الدَّلائل» (1/114) من طريق يونس بن عطاء المكي، أخبرنا الحكم بن أبان العدني، أخبرنا عكرمة عَنْ ابن عَبَّاس عن أبيه العبَّاس به؛ وهذا إسناد واهٍ بسبب يونس ابن عطاء، فقد قال عنه ابن حبَّان في «المجروحين» (3/141): «يروي العجائب، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد»، لهذا قال ابن كثير في «تاريخه» (2/324): «وهذا الحديث في صحَّته نظر»، وانظر: «الضَّعيفة» للألباني (13/577).

وهو مخالف لما روي عن عكرمة عن ابن عباس: «**أن عبد المطلب ختن النَّبيَّ أ يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسمَّاه محمَّدًا**» أخرجه ابن عبد البر في «التَّمهيد» (21/61، 23/140) وقال: «حديث مسند غريب»؛ قلت: تفرَّد به محمَّد بن المتوكِّل بن أبي السَّري قال عنه الحافظ: «صدوق عارف، له أوهام كثيرة».

(24) «الاستيعاب» (1/38)، ط. عادل مرشد.

(25) أخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (1/156)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (3/414).

(26) هنا وقع سقط وهو شيخ المصنف الذي بينه وبين علي بن طراد، وهو عمر بن محمد بن طبرزد.

(27) يعني الإمام الدَّارقطني.

(28) وهو الإمام الحافظ الثِّقة، الوزير ابن الوزير، من أهل بغداد، نزل بمصر، واستوزره بنو الإخشيد بها مدَّة إمارة كافور؛ وتوفي سنة (391هـ)، وحِنْزَابَة: هي أمُّ أبيه الفضل بن جعفر؛ وفي اللُّغة: المرأة القصيرة الغليظة، انظر ترجمته في «السِّير» 16/484، و«وفيات الأعيان» (1/346).

(29) في الأصل: إحديهما، والتصويب من «سؤالات السهمي».

(30) كتب في الهامش: «قلت: مربع لقب محمَّد بن إبراهيم الحافظ»، وقد لقِّبه بذلك يحيى بن معين، كما هي عادته في تلقيب أصحابه؛ انظر: «تاريخ بغداد» (1/388).



فحكَّ محمَّد بنَ إبراهيم وبقي مُرَبَّع، فبَرَدَ على قَلبي، ولم أُخرج عنه شيئًا.

قال: وسألتُ الدَّارقطنيَّ : عن محمَّد بن محمَّد ابن سليمان البَاغندي؛ قال: «كان كثيرَ التَّدليس يحدِّثُ ما لم يَسْمَع، وربَّما سَرق[31]؛ وقال: أشَدّ ما سمعتُ فيه مِنَ الوزير ابن حِنْزَابَة»»[32].

وقد رُوي هذا الحديثُ عن الحسَن البصري[33] عن أنس بن مَالك ﭬ مرفوعًا من وجوه لا يصِحُّ شيءٌ منها.

أخبرنا بذلك الشَّيخ الإمام العَلاَّمة أبو اليُمْن زَيد ابن الحسن بن زيد الكِنْدي كتابةً، وقرأتُ عليه بدمشق، أبنا أبو منصور عبد الرَّحمن بن محمَّد القَزَّاز، أبنا الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخَطيب، أبنا أبو سعيد الحسن بن محمَّد ابن عبد اللّه بن حَسْنَوَيْه الكاتب بأصبَهان، ثنا القاضي أبو بكر محمَّد بن عمر ابن سَلْم الحافظ، حدَّثني أبو بكر محمَّد بن أحمد ابن الفرج البَغدادي بالأُبُلَّة، ثنا سفيان ابن محمَّد المَصِّيصي، (ح) وأخبرنا أبو البركات الحسن ابن محمَّد بن الحسن قراءةً عليه بدمشق، أبنا الحافظ أبو القاسم عمِّي، أبنا أبو الحسن عليُّ ابن الحسن ابن الحسين الموازيني، أبنا أبو الحسين بن أبي نَصر، أنبا محمَّد بن يوسُف بن يعقُوب الرَّقِّي، ثنا الحسين بن عبد اللّه العَوْفِي بالبصْرة، ثنا محمَّد بن أحمد الكَرْخي، ثنا سفيان بن محمَّد المَصِّيصي، ثنا هُشيم عن يونس[34] ابن عُبيد عن الحسن عن أنس بن مالك ﭬ قال:

قال رسول اللّه ﷺ :

«مِنْ كَرَامَتي عَلَى اللّه عزَّ وجلَّ أَنِّي وُلِدْتُ مخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ سَوْأَتي أَحَدٌ»[35].

قال الحافظ أبو بكر الخطيب : : «لم يَروه فيما يُقال: عن يونس غير هُشيم؛ وتفرَّد به سفيان ابن محمَّد»[36]، وسفيان بن المَصِّيصي مُنكَر الحديث.

أنبأنا أبو اليُمن زَيد بن الحسن بن زيد الكِنْدي، أبنا أبو منصور القَزَّاز، أبنا أحمد بن علي أخبرني الأزهَري قال: «سُئل أبو الحسن الدَّارقطني عن سفيان ابن محمَّد المَصِّيصي؛ فقال: لا شيء»[37].

وقال أحمد بن عليٍّ: أبنا القاضي أبو الطَّيِّب طاهر ابن عبد اللّه الطَّبَريُّ قال: قال لنا الدَّارَقُطنيُّ : : «شيخٌ لأهل المَصِّيصَة، يُقال له سُفيان بن محمَّد الفَزَاريُّ كان ضعيفًا سيِّءَ الحال»[38].

أخبرنا الكِنديُّ إجازةً أبنا القَزَّاز، أبنا أبو بكر الخطيب أخبرني محمَّد بن عليٍّ المُقْرئ، أبنا أبو مسلم ابن مِهْران، أبنا عبد المؤمن بن خَلَف الواسِطيُّ قال: «سألتُ أبا عليٍّ عن سُفيان بن محمَّد المَصِّيصِي؛ فقال: لا شيء»[39].

وأبو عليٍّ: هو صَالح بنُ محمَّد الحافظ المعروف بجَزَرَة.

وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن هُشَيم بن بَشِير من وجهٍ آخر في إسناده، وهُو ضعيفٌ.

(31) في «سؤالات السهمي»: «وربَّما سرق بعض الأحاديث».

(32) «سؤالات السهمي للدَّارقطني» (ص89 ـ 91).

(33) وروي أيضا عن الحسن عن أبي هريرة ﭬ : «أن النبي ﷺ ولد مختونا» أسنده ابن عساكر في «تاريخه» (412/3) وفي إسناده محمَّد بن كثير الكوفي وإسماعيل بن مسلم المكي وكلاهما منكر الحديث.

(34) في الأصل: يوسف، وهو تصحيف.

(35) أخرجه الطَّبراني في «الأوسط» (6148)، وفي «الصَّغير» (936)، وابن عساكر في «تاريخه» (412/3)، والخطيب في «تاريخه» (329/1)، وفي «المتّفق والمفترق» (688)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (264).

(36) لم يتفرَّد به سفيان بن محمَّد عن هُشيم به؛ بل تابعه الحسن ابن عرفة العَبدي؛ كما سيأتي.

(37) انظر: «سؤالات السُّلَمي للدَّارقطني»: المسألة (152).

(38) «تاريخ بغداد» (185/9).

(39) «تاريخ بغداد» (185/9).

أخبرنا به أبو البركات الحسن بن محمَّد بن الحسن بدمشق، أبنا عمِّي الحافظ أبو القاسم عليُّ بن الحسَن ابن هبة الله الشَّافعي، أبنا أبو النَّضر عبد الرَّحمن ابن عبد الجبَّار بن عُثمان القاضي المُعَدِّل، وأبو عبد الله محمَّد ابن عليِّ بن محمَّد الطَّبيب حفيد العُمَري بهَرَاة قالاَ: أبنا أبو عبد الله محمَّد بن عليِّ بن محمَّد العُمَري قال: أبنا أبو منصور محمَّد بن جبْريل بن صالح الفقيه، أبنا أبو بكر أحمد بن محمَّد[40] الأَسْفَاطِي إملاءً من حفظه، ثنا أبو الفَضل محمَّد بن عبد الله المرجاني ونوح بن محمَّد ابن نوح قالاَ: ثنا الحسَن بن عَرفة العَبْديُّ، ثنا هُشَيم عن يونس عن الحسن عن أنس Ç قال: قال رسول الله أ :

«**مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالى أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، لَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي**»[41].

قال الحافظ أبو القاسم[42]: «وهذا إسنادٌ فيه بعضُ من يُجْهَل حالُه، وقد سَرَقه ابنُ الجارود وهو كذَّاب، فرَواه عن الحسَن بن عرفة».

أخبرناه أبو البركات قال: أبنا عمِّي، أبنا أبو سَعْد عبدُ الله بن أسعد بن أحمد بن محمَّد بن حيَّان النَّسَوي، أبنا أبو الفَضْل محمَّد بن عبد الله بن محمَّد ابن الصَّرَّام، أبنا القاضي أبو عمر محمَّد بن الحُسين البِسْطَامي، أبنا أبو بكر أحمد بن عبد الرَّحمن ابن الجارود الرَّقِّي، أبنا الحسن بن عرفة، أبنا هشيم ابن بشير عن يونس عن الحسن عن أنس بن مالك Ç قال: قال رسول الله أ :

«**مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ سَوْأَتِي أَحَدٌ**»[43].

فهذا النَّقلُ بأنَّه أ وُلِدَ مختُونًا لا يَثْبُت؛ على أنَّ هذا المُجيبَ لَم يُورد شيئًا ممَّا ذكرَهُ عُلماء الحديث والرِّوايَة في هذا الباب، ولا ساقَ حديثًا بإسناد نبَّه فيه على الخَطأ والصَّواب؛ بل جعل جُلَّ اعتماده في ذلكَ على حديثٍ سقيم[44] نقلَه عن أبي عبدِ الله محمَّد بن عليِّ التِّرمِذِي الحَكيم[45]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(40) في الأصل: محمد بن أحمد؛ وهو خطأ

(41) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (3/42)، وفي «دلائل النُّبوَّة» (92)، وابن عساكر في «تاريخه» (3/413 ـ 414)، والضِّياء في «المختارة» (1864)، قال أبو نعيم: «غريب من حديث يونس عن الحسن لم نكتبه إلاَّ من هذا الوجه».

وقال الذَّهبي في «الميزان» عن نوح بن محمَّد: «روى عن الحسن ابن عرفة حديثًا شبه موضوع».

ونقل ابن الملقِّن في كتابه «غاية السُّول» (ص301) عن ابن دِحْيَة قوله: «ولم تُعرف علَّته واعتُقِد صحَّتُه، وهو حديث مصنوع الإسناد».

وقال الألباني في «الضَّعيفة» (6270): «منكر»؛ ومنه يتبيَّن لك تساهل من جوَّد إسناده كالحافظ مغلطاي، نقل ذلك عنه المناوي في «فيض القدير» (6/22)، ويستغرب قول الحاكم في «المستدرك» (2/602): «وقد تواترت الأخبار أنَّ رسول الله أ ولد مختونًا مسرورًا»، فعُدَّ هذا من شقاشقه كما قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» في ترجمته (5/232)؛ وقد تعقَّبه الذَّهبيُّ بقوله: «ما أعلم صحَّة ذلك، فكيف متواتر؟!»، وكذا الحافظ ابن كثير في «البداية والنِّهاية» (2/325) فقال: «وقد ادَّعى بعضهم صحَّتَه لما ورد له من الطُّرُق حتَّى زعم بعضُهم أنَّه متواتر، وفي هذا كلِّه نظر»؛ كما يُتعجَّب من قول ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/172) عقب حديث أنس: «لا أشكُّ أنَّه وُلد مختونًا؛ غير أنَّ هذا الحديثَ لا يصحُّ به»!!

(42) أي الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» (3/414).

(43) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (3/414).

(44) وهو حديث صفيَّة بنت عبد المطَّلب á قالت: «**أردتُ أن أعرفَ أذكرٌ هو أم أُنثى، فرأيتُه مختونًا**» ذكره الحكيم التِّرمذي في «معجزات النَّبي أ ».

قال ابن القيِّم في «تحفة المودود» (ص203): «وهذا الحديث لا يثبت، وليس له إسناد يعرف به».

وقال المصنِّف في أصل هذا الكتاب وهو «الملحة»: «وما حكاه عن صفيَّة بقولها «**فرأيته مختونًا**»؛ يُناقض الأحاديث الأخر، وهو قوله: «**لم ير سوأتي أحد**»؛ فكلُّ حديث في هذا الباب يناقض الآخر، ولا يثبت واحد منها؛ ولو ولد مختونًا فليس من خصائصه أ ؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاس يولد غير محتاج إلى الختان» نقله ابن القيِّم في «التُّحفة» (ص204)؛ وقد نقل كلامًا نفيسًا للمؤلِّف من (ص203) إلى (206) ممَّا يدلُّك على أنَّه كان ينقل من الأصل وهو «الملحة في الرَّدِّ على ابن طلحة».

(45) وفي أصل هذا الكتاب أي «الملحة» تتمَّة فيها بيان حال الحكيم التِّرمذي والقدح فيه، وقد نقله ابن القيِّم، وأورده ابن حجر في «لسان الميزان» (5/309)، إلاَّ أنَّه تعقَّبه ورمى ابن العديم بالمبالغة.

وممَّا لاريب فيه أنَّ الحكيم التِّرمذي له زلاَّت وهنات، ومن طالع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وقف على حقيقة الأمر، فانظر مثلاً: «مجموع الفتاوى» (2/222)، (11/323، 373)، و(13/267).

الوصل والفصل

بَيْنَ تَطْبِيقَاتِ البَلاَغِيِّينَ وَاسْتِعْمَالاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

زكرياء توناني
ماجستير في اللغة والدراسات القرآنية - البليدة

الحمدُ للّهِ رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصحبِه أجمعين، أمَّا بعدُ:

فموضوعُ هذا البحث حول مسألة من مسائل علم البلاغة، حاولتُ أن أُبيِّنَ فيها الحقَّ، وأشيرَ إلى أنَّه ينبغي لِلُّغَوِيِّ أن يجعل القرآن الكريمَ أصلاً من أصول استنباط قواعده؛ لا أنَّه يُؤَصِّلُ قواعدَهُ من كلام امرئ القيس وعنترة والنَّابغة الذّبياني.. إلخ، ثمَّ إذا ورد ما يُخالفُه في القرآن الكريم، زَعَمَ أنَّه مُؤَوَّلٌ بما يوافقُ القاعدةَ الَّتي أصَّلَها!

وهذه المسألةُ هي: (الوَصْلُ وَالفَصْلُ)؛ وهي من أهمِّ المباحث البلاغيَّة.

● قال عنه جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ :

«وهو أعظمُ أبواب هذا العلم خَطَرًا، وأصعبُهُ مَسْلَكًا، وأدقُّهُ مَأْخَذًا، حتَّى قَصَرَ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ البلاغةَ على معرفةِ الوَصْلِ وَالفَصْلِ»[1].

✵ ✵ ✵

تعريف الوصل والفصل[2]

■ **الوَصْلُ**: هو عَطْفُ الجُمَلِ بالوَاو.

■ **والفَصْلُ**: هو تَرْكُ ذَلكَ العَطْف.

وخصَّ البلاغيون الوَاوَ بالبحث؛ لأنَّها هي الحرف الَّتي تخفى الحاجةُ إليها، ويحتاج العطفُ بها إلى دقَّة إدراك، إذِ الوَاوُ لا تدلُّ إلاَّ على مطلق الجمع والاشتراك، بخلاف غيرها من حروف العطف كالفاء - مثلاً -؛ فإنَّها تدلُّ على التَّرتيب والتَّعقيب، و«ثُمَّ» وهي تدلُّ على التَّرتيب والتَّراخي، وهكذا .

مُناقَشَةٌ:

قدَّمنا الوَصْلَ عَلَى الفَصْلِ؛ لأنَّهم يقولون في تعريف الوَصْل: إنَّهُ عَطْفُ الجُمَلِ بالوَاوِ؛ ثمَّ إذا جاؤوا ليعرِّفوا الفَصْلَ يقولون: هُوَ تَرْكُ ذَلكَ العَطْف، فلو ابتدأنا بتعريف الفَصْلِ؛ لأحلْنَا على شيءٍ مَجْهُولٍ.

ولكنَّ هذا الإيرَادَ يُمكن دفعُه؛ بأن نقول في تعريف الفَصْلِ: هُوَ تَرْكُ عَطْفِ الجُمَلِ بالوَاوِ.

وأيضًا، فإنَّ مَنْ قَدَّم الوَصْلَ على الفَصْلِ، احتجَّ بأنَّ الفَصْلَ هُوَ تَرْكُ العَطْفِ، فهو شيءٌ عَدَمِيٌّ، والوَصْلَ

(1) «شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان» لجلال الدين السيوطي (ص58) / ط. دار الفكر.

(2) «بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية» لابن عبد الله أحمد شعيب (ص300).



هو العَطْفُ فهو شيءٌ وُجوديٌّ؛ والوُجودُ أشرَفُ من العَدَم، ولهذا كان الأَوْلَى أن يُقدَّم الوَصْلُ.

وهذا أيضًا، يُمكن أن يُدْفَعَ بأن نقول: نعم، الوَصْلُ شيءٌ وجوديٌّ، والفصْلُ شيءٌ عَدَميٌّ؛ ولكن نقول: إنَّ العدمَ سابقٌ على الوجُود، ولهذا كان الأَوْلَى أن يُقدَّم الفَصْلُ على الوَصْل.

والأمرُ مُحتملٌ للوجهين.

مواضع الوصل والفصل[3]

يَجبُ الوَصْلُ بَيْنَ الجُملِ في مواضعَ، ويجب الفَصْلُ بَيْنَ الجُمَلِ في مَوَاضِعَ[4]:

أَوَّلاً. مَوَاضِعُ الوَصْلِ:

يجب الوصلُ بين الجملتين في ثلاثة مواضع:

❶ إذا قُصدَ إِشْرَاكُهُمَا في الحُكْمِ الإِعْرَابيِّ:

كقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [سُورَةُ الغَاشِيَةِ].

ويُمثِّل البلاغيُّون بقول أبي العلاء المعرِّي:

وَحُبُّ العَيْشِ أَعْبَدَ كُلَّ حُرٍّ
وَعَلَّمَ سَاغِبًا أَكْلَ المُـرَارِ

فالجملتان: «أَعْبَدَ كُلَّ حُرٍّ» و«وَعَلَّمَ سَاغِبًا أَكْلَ المُرَارِ»، كُلٌّ منهما في موضع خبرٍ للمبتدأ قبلها.

فالمتنبِّي قَصَد إشراكَ الجملة الثَّانية للأولى في الحكم الإعرابي، ولهذا وَصَل بينهما بالواو.

وكقولك مثلا: زَيْدٌ يَكْتُبُ وَيَسْمَعُ.

❷ إذا اتَّفقت الجملتان خبرًا أو إنشاءً، وكانت بينهما مناسبةٌ تامَّةٌ، ولم يكن هناك سببٌ يقتضي الفصلَ بينهما:

ومثال الإنشاء قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: 199]، وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة: 82].

ومثال الخبر قوله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار].

وكقول الشَّاعر:

أُسُودٌ إِذَا مَا أَبْدَتِ الحَرْبُ نَابَهَا
وَفي سَائِرِ الدَّهْرِ الغُيُوثُ المَوَاطِرُ

وكقول الشَّاعر:

يُشَمِّرُ لِلُّجِّ عَنْ سَاقِهِ
وَيَغْمُرُهُ المَوْجُ في السَّاحِلِ

❸ إذا اختلفت الجُملتان خَبرًا وإنشاءً، وأَوْهَمَ الفَصْلُ خلافَ المَقْصُود:

كأن يسألك سائلٌ: **هَلْ شُفِيَ أَخُوكَ؟** فتقول: **لا، وَشَفَاهُ اللهُ.**

فلو تُركَ الوصلُ، وقيل: «**لا شَفَاهُ اللهُ**»، لأوهَمَ أنَّك تدعو عليه، وأنت تُريد أنْ تدعوَ له.

وهكذا لو قال لك أَخٌ لك: **هَلْ أُعِينُكَ بِشَيْءٍ؟** فتقول له: لا، وَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا.

فلو تركتَ الوصل، وقلتَ: «لا، جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا»، لأوهَم خلافَ مقصودك.

ثانيًا. مَوَاضِعُ الفَصْلِ:

يجب الفصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع:

(3) يُنظر: «البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها» لعبد الرَّحمن حسن حبنكة الميداني (1/583 ـ 592)، «البلاغة، فنونها وأفنانها (علم المعاني)» لفضل إحسان عباس (ص405 ـ 428)، «جواهر البلاغة (المعاني والبيان والبديع)» لأحمد الهاشمي (ص181 ـ 186)/ ط. الكتبة العصرية، «بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح» لعبد المتعال الصعيدي (2/279 ـ 302).

(4) هذا على حسب تقرير البلاغيين، وسيأتي التَّنبيه على بعض المسائل.



❶ أن يكون بينهما اتِّحادٌ تامٌّ، وذلك بأن تكون الجملةُ الثَّانيةُ تأكيدًا للأولى، أو بيانًا لها، أو بدلاً منها، ويُقال حينئذٍ: إنَّ بين الجملتين كمالَ الاتِّصالِ.

مثالُ التَّأكيد:

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ الطَّارِق]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

وكقولِ المُتَنَبِّي:

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدي
إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا

ومثالُ البَيَانِ:

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [سُورَةُ طه]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ النَّجْم]، وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 49].

وكقول المَعَرِّي:

النَّاسُ بالنَّـــاسِ مِنْ حَضَرٍ وَبَادِيَةٍ
بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

ومثالُ البَدَلِ:

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُون]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [سُورَةُ الرَّعْد].

❷ أن يكون بين الجملتين تَبَايُنٌ تامٌّ، بأن لا يكون بينهما مناسبة ما، أو أن تختلفا خبرًا وإنشاءً، ويُقال حينئذٍ: إنَّ بين الجملتين كمالَ الانْقِطاعِ.

مثالُ الجملتين اللَّتين لا مناسبةَ بينهما: قولُ الشَّاعر:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ
كُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِمَا لَدَيْهِ

وكأن تقول ـ مثلاً ـ: الجَوُّ بَارِدٌ، العِلْمُ نُورٌ.

ومثالُ الجملتين المُختلفتين خبرًا وإنشاءً: قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

فالجملة الأولى إنشائية (أمر)، والثَّانية خبرية.

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

فالجملة الأولى إنشائيَّة، والثَّانية خبريَّة.

وقال أبو العتاهية:

يَا صَاحِبَ الدُّنْيَا الْمُحِبَّ لَهَا
أَنْتَ الذي لا يَنْقَضِي تَعَبُهُ

فالجملة الأولى إنشائية (نداء)، والثَّانية خبريَّة.

❸ أن تكون الجملةُ الثَّانيةُ جوابًا عن سؤال يُفهَم من الأولى، ويُقال حينئذٍ: إنَّ بين الجملتين شِبْهَ كَمَالِ الاتِّصَالِ.

كقول اللّٰه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [هُود: 69].

لأنَّ الجملةَ الثَّانيةَ جوابٌ لسؤالٍ يُفهَم من الأولى، وكأنَّه قد قيل: ماذا قال إبْراهيمُ؟ فقيل: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

وكقول أبي تَمَّام:

لَيْسَ الحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لي أَمَلاً
إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

فالجملة الثَّانية جوابٌ لسؤال يُفهم من الجملة الأولى، وكأنَّ سائلاً قال: كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحصيل مرادك؟ فقال: «إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ».

البلاغيون والقرآن الكريم

⊙ المَسْأَلَةُ الأُولَى:

تقدَّم أنَّه إذا اختلفت الجُملتان خَبرًا وإنشاءً، وأَوْهَمَ الفَصْلُ خِلافَ المَقْصُود؛ أنَّه يجب الوَصْلُ بين الجُملتين.

هذا تقريرُ أكثر البلاغيين.

والصَّوابُ خلافُه، بل يجوزُ الفَصْلُ، ويكون السِّياقُ هو الشَّاهدَ على المَعْنَى ومُوَجِّهًا للمقصود؛ ويُستغْنَى عن الوَاوِ بسَكْتَةٍ لَطِيفَة.

والدَّليلُ على ذلك من القرآن:

قولُه جلَّ جلاله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس: 65].

فإنَّه يلزم الوقفُ على ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾، ثمَّ الابتداء بما بعدها.

لأنَّه لو وُصلَ الجميعُ لأوهَمَ خلافَ المُرَاد، وكان النَّهيُ متوجِّهًا للنَّبيِّ ﷺ أن لا يَحزنَ من قول الكفَّار: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وهُوَ ظاهرُ الفَسَاد، ومع ذلك لم يُوصَل بين الجملتين بالواو.

لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَحزَنُ من قول الكفَّارِ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ـ على فَرْضِ أنَّهم قالوها ـ، وهو واضحٌ بيِّنٌ، ولله الحمد والمِنَّة.

ونظيرُه ـ أيضًا ـ، قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يس].

فأنتَ ترى ـ وفَّقني اللهُ وإيَّاكَ ـ أنَّ الجملتين اختلفتا خبرًا وإنشاءً، وكان الوَصْلُ يوهم خلافَ المَقْصُود، ومع ذلك لم يحصُلِ الوَصْلُ، بل فُصِلَ بينَ الجُملتين، ويُستغنى عن الواو بسَكتةٍ لطيفةٍ[5].

ويُؤيِّدُ هذا المَعْنَى ما جاء في «الصَّحيحين» عن أبي هريرة مَرْفُوعًا:

«**بَيْنَمَا امْرَأَتَان مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذه لصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِك أَنْت، وَقَالَتْ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِك، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُد فَقَضَى به للْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بن دَاوُد عَلَيْهِمَا السَّلامُ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُوني بالسِّكِّين أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا، فَقَالَتْ الصُّغْرَى: لا، يَرْحَمُكَ الله، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى به للصُّغْرَى**»[6].

فقوله: «**لا، يَرْحَمُكَ الله**»، هو مطابقٌ للأمثلة الَّتي يتداولُها البلاغيُّون، ومع ذلك لم يُوصَل بين الجُملتين، بل فُصِل بينَهما.

ويُكتفى هنا بسكتة لطيفة، كما نَبَّه عليه أَبُو الْعَبَّاسِ القُرْطُبيُّ في «شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِم».

ومثلُه أيضًا ما جاء في «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عن عَائِذِ ابنِ عَمْرو:

«**أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْب وَبلال في نَفَر، فَقَالُوا: وَالله مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ الله مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْر: أَتَقُولُونَ هَذَا لشَيْخ قُرَيْش وَسَيِّدهمْ؟! فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ، فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْر فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ، أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لا، يَغْفرُ الله لَكَ يَا أُخَيَّ**»[7].

والكلام في قوله: «لا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أُخَيَّ»، كالكلام في سابقه.

---

(5) المرادُ بالسَّكتة اللَّطيفة: هو الوَقْف ـ اللاَّزم أو الواجب ـ.

(6) «صحيح البخاري» (3427)، «صحيح مسلم» (1720).

(7) «صحيح مسلم»: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال ﷺ (2504).

⊙ المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:

تقدَّم أنَّه إذا كان بين الجملتين تَبَايُنٌ تامٌّ، أنَّه يجب الفَصْلُ؛ ولهذا صُوَرٌ.

ومن صُوَرِه: أن تختلف الجُملتان خبرًا وإنشاءً.

هذا تقرير جمهور البلاغيين.

والصَّوابُ أنَّه يجوز الوَصْلُ؛ لوُرُوده في القرآن الكريم، قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 121].

فقولُه: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ﴾ هذا إنشاءٌ؛ لأنَّه نَهْيٌ، وقولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ هذا خبرٌ؛ ومع ذلك وُصِلَ بين الجُملتين بالواو.

ومثلُه قولُه جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح].

فقولُه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ هذا خبرٌ، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ هذا إنشاءٌ؛ ومع ذلك وُصِلَ بين الجُملتين.

● قال العلاَّمة الطَّاهر بن عَاشُورٍ : عند هذه الآيةِ:

«ولا يَرِيبُـكَ عطفُ الإنشاءِ على الخبرِ؛ لأنَّ مَنْعَ عطفِ الإِنْشاءِ على الخبرِ على الإطلاقِ غيرُ وجيهٍ، والقرآنُ طافحٌ به»[8].

وممَّا ورد في عطف الخبر على الإنشاء قوله جل وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة البقرة].

فقولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ هذا خبرٌ، وقولُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا إنشاءٌ؛ ومع ذلك وُصِلَ بين الجُملتين.

ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في القرآن الكريم وفي لغة العربِ.

ولهذا ضَعُفَ قولُ جمهورِ البلاغيين القائلين بوجوب الفَصْلِ بين الخبر والإنشاء.

◪ ◪ ◪

هذا ما أردنا توضيحَهُ حول هذه المسألة من عِلْمِ البلاغة.

واللهَ أسألُ أن ينفعَ به طلاَّبَ العلمِ أجمعين، آمين.

وصلَّى الله على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِه وصحبه أجمعين.



(8) «التَّحرير والتَّنوير» للطَّاهر بن عاشور (29/210).

قرة عين الأبوين

في رِعَايَةِ وتَرْبِيَةِ البَنَاتِ والبَنِين ... (الجزء الأول)

نجيب جلواح

الأَوْلادُ والذُّرِّيَّةُ نعْمةٌ من نعَم الله الجَليلة، تَقرُّ بها العُيونُ، وتَبتهجُ لها النُّفوسُ، وتَطْمئنُّ إليها القُلوبُ.

وهُمْ زينةُ الحياة، ورَيْحانَةُ الدُّنيا، وفِلْذَةُ الأكْباد، وثمرَةُ الفُؤاد.

قالَ تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف].

وهذه النِّعْمةُ لا تَكونُ نعمةً حَقيقيَّةً إلاَّ إذا قامَ الأبوانِ بواجبِها وحقِّها، وأحسنَا رِعايةَ الأبْناء وتَنْشئَتَهم.

والأَوْلادُ سَببٌ لانْتفاعِ الآباء؛ فابْنُ آدمَ يَنْقطعُ تجدُّدُ ثوابِه وأجْرِه بخُروجه منْ دارِ الدُّنيا، و«إنَّما يَنتفعُ بآثارِ ما عملَه في حَياته»[1].

ولمَّا كانَ الوَلدُ منْ كسْبِ أبيه[2] انتفعَ به، فاسْتُثنيَ منْ عملِه المُنقطع، والعَملُ الصَّالحُ الَّذي يَقومُ به الوَلَدُ يُكتَبُ للوَالد مثْلُه ـ ولو بعدَ موْته ـ منْ غيرِ أنْ يَنْقُصَ منْ أجْره شيءٌ، وهذا إنْ دَعاهُ إليه في حالِ حَياته؛ لأنَّ الدَّالَ على الخيرِ كَفاعله[3].

ورِعايةُ الآباءِ أبْناءَهم منَ الأعْمالِ الصَّالحة الَّتي يَسْتمرُّ ثوابُها كاسْتمْرارِ الصَّدقَة الجارية.

فعنْ أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلاَّ منْ ثَلاثَة، صَدَقَة جَاريَة، أَوْ علْم يُنتفَعُ به، أَوْ وَلَد صَالح يَدعُو لَهُ**»[4].

ولا يَكونُ الوَلَدُ صالحًا ـ عادةً ـ إلاَّ إذا أحْسَنَ وَالدَاهُ تَرْبيتَه، وهذَّبَا سُلوكَه وأخْلاقَه.

والمؤمنونَ الصَّادقونَ يَرفَعونَ أكُفَّهم إلى ربِّهم مُتضرِّعينَ إليه أنْ يُكرِمَهم بالذُّرِّيَّة الصَّالحة، ويجْعَلَ أبْناءَهم قُرَّةَ أعْيُنهم.

قالَ اللهُ تعالى ـ حاكيًا قولَ نبيِّه زَكريا عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [آل عمران: 38].

أيْ: «طاهرةَ الأخْلاق، طيِّبَةَ الآداب؛ لِتكْمُلَ النِّعْمةُ الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ بهم»[5].

وهذا هُو مَطْلبُ عباد الرَّحمن؛ قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: 74].

يَعني: «الَّذينَ يَسألُونَ اللهَ أنْ يُخْرِجَ منْ أصْلابهم وذُرِّياتهم مَنْ يُطيعُه، ويَعْبُدُه وَحْدَه لا شَريكَ له»[6].

روى ابْنُ أبي الدُّنيا عن حَزْمٍ، قال: «سمِعْتُ كثيرًا

(1) أُنظر: «الفَتاوى الكُبرى» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (4/257).

(2) روى النَّسائيُّ (4449) وابْنُ ماجه (2137) عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ منْ كَسْبِه، وَإِنَّ وَلَدَهُ منْ كَسْبِه»، و هو في «صحيح سنن النّسائيّ» للألبانيّ (4144).

(3) روى التّرمذيُّ (2670) عن أنس بن مالك ـ مرفوعا ـ: «إنَّ الدّالَّ على الخيرِ كفاعلِه»، وهو في «السّلسلة الصّحيحة» للألبانيّ (1660).

(4) رواه مسلمٌ (1631).

(5) أُنظر: «تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنّان» للشّيخ السّعديِّ (ص129).

(6) أُنظر: «تفسير القرآن العظيم» لابْن كثيرٍ (6/132).



(يَعني: ابْنَ زِيادٍ) يَسْأَلُ الحسَنَ (أيْ: البَصْرِيَّ) قالَ: يا أَبا سَعيد! قولُ اللّه y : ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أَفي الدُّنيا أمْ في الآخرة؟

قال: لا ، بلْ في الدُّنيا.

قالَ: وما ذاكَ؟

قالَ: المؤمِنُ يَرَى زَوْجته وولَده مُطيعينَ اللّه y .

قال: وأيُّ شيءٍ أقَرُّ لعَيْن المؤْمنِ منْ أنْ يَرى زوجَته وولَده يُطيعونَ اللّه عزّ وجلّ ذِكْرُه؟!»[7].

◢ ◢ ◢

والاهْتمامُ بالأوْلاد - رعايَةً و نُصْحًا وتَوْجيهًا - سِمَةُ المؤْمنينَ، وصِفَةُ عِبادِ اللّهِ الصَّالحينَ.

فهذا نبيُّ اللّه يعقوبُ o وهُو على فراش الموْت، لم ينْسَ أنْ يُوصِيَ أبْناءَه بالثَّبات على العَقيدَة الصَّحيحَة.

قالَ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

وهذا لُقْمانُ - الَّذي آتاهُ اللّهُ الحكْمَةَ - «يُوصي وَلَده الَّذي هُو أشْفَقُ النَّاس عليه وأحَبُّهم إليه، فهُو حَقيقٌ أنْ يَمْنَحه أفْضلَ ما يَعْرفُ»[8]، فيعظُهُ مَوْعظَةً جامعَةً، وينْصَحُهُ نَصيحَةً نافعَةً، ويأمُرُه بعبادة اللّه وَحْدَه، ويُحذِّرُه تحْذيرًا شَديدًا منْ أنْ يجْعلَ للّه نِدًّا وهُو خَلقَه، ويُبيِّنُ له خُطورَةَ الإشْراك باللّه.

قالَ y : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَان].

(7) كتاب «العيال» [بابُ صلاح الوَلَد (2/617)].

(8) أُنظر: «تفسير القرآن العظيم» لابْن كثيرٍ (6/336).

ثمَّ يُوَجِّهُه للْعمل بالأخْلاق الفاضلة والخلال الرَّفيعَة، والتَّمسُّك بالعُرَى الوَثيقة، فيقولُ: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَان].

وبَعدها يَنْهاهُ عن الأخْلاق السَّيِّئَة والخصال الوَضيعة، فيقولُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَان].

فـ«الحمْدُ للّه الَّذي مَنَّ علينَا بنعْمة الأوْلاد، وفتَح لنا منْ أسْباب الهدايَة كلَّ باب، ورغَّبَ في طُرُق الصَّلاح وحذَّرَ منْ طُرُق الفَساد... اُشْكُرُوه على مَا أنْعمَ به عليكم منْ نعْمة الأوْلاد، واعْلمُوا أنَّ هذه النِّعْمة فتنةٌ للْعبْد واخْتبارٌ، فإمَّا منْحةٌ تكونُ قُرَّةَ عَيْنٍ في الدُّنيا والآخرة، سُرورٌ للقلْب، وانْبساطٌ للنَّفس، وعَوْنٌ على مَكايد الدُّنيا، وصَلاحٌ يحْدُوهم إلى البرِّ في الحياة وبَعْدَ المَمات، اجْتماعٌ في الدُّنيا على طاعَة اللّه، واجْتماعٌ في الآخرة في دار كرامَة اللّه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ [الطُّور: 21]»[9].

«فهذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ اللّهَ سُبحانَه يُلْحقُ ذُرِّيَّة المؤْمنينَ بهم في الجنَّة، وأنّهم يكونونَ معهم في دَرَجَتهم، ومع هذه فلا يُتَوهَّمُ نُزولُ الآباء إلى دَرَجة الذُّرِّيَّة، فإنَّ اللّه لم يلِتْهُم، أيْ: لم يَنْقُصْهم منْ أعْمالهم شيْئًا، بل رَفعَ ذُرِّيَّاتِهم إلى دَرَجاتهم مع توْفير أُجور الآباء عليهم»[10].

◢ ◢ ◢

ولَمَّا كانَ الأوْلادُ رِجالَ الغَد، وقُوَّتَه المُنْتَظَرَة، ودعائم

(9) أُنظر «الضِّياء اللاّمع من الخُطب الجوامع» للشّيخ محمّد بن صالح العُثيمين (ص612).

(10) أُنظر «طريق الهجرتين وباب السَّعادتين» لابْن القيِّم (ص586).



المجتمع التي سَيَقومُ عليها؛ فإنَّ أداءَ حُقوقهم كاملةً على الوَجْه الذي يُرْضي اللّه - برعايتهم وتَربيَتهم وتَعْليمهم - يَكْتَسي أَهَمِّيَّةً بالِغَةً، وهُو ذُو شأنٍ كبيرٍ.

والقيامُ بهذا الواجِب العَظيم المُلْقى على عاتِق الأبوَيْن يَتطلَّبُ فهمًا تامًّا لهذه المَسْؤولِيَّة حتَّى تُؤدَّى على الوَجْه المطْلوب.

فعَنْ عَبْدِ اللّه بنِ عُمرَ أنَّه سمعَ رَسولَ اللّه قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ فمَسْؤُولٌ عنْ رعيَّته، فَالأَميرُ الَّذي عَلَى النَّاس فَهُوَ رَاعٍ عَلَيْهِمْ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْته وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعيَةٌ عَلَى بَيْت بَعْلهَا وَوَلَده وَهيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَال سَيِّده وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعيَّته»[11].

أفادَ هذا الحديثُ أنَّ الأبَ والأمَّ راعيانِ ومُؤْتَمَنان على أوْلادهما.

وعنْ عُثمانَ الحاطِبيِّ قالَ: «سمعْتُ ابنَ عُمَرَ يقولُ لِرَجُلٍ:

«أَدِّب ابْنَكَ، فإنَّكَ مَسْؤُولٌ عنْ وَلَدِك، ماذا أدَّبْتَه، وماذا علَّمْتَه؟ وَإنَّهُ مَسْؤُولٌ عنْ برِّكَ وطواعيَته لكَ»[12].

◪ ◪ ◪

ومَع عِظَم هذه المَسْؤوليَّة غيْرَ أنَّ كثيرًا من الآباء - اليومَ - قدْ فرَّطَ فيها، واسْتَهانَ بها، ولم يُولِها الاهْتِمامَ الَّذي تَسْتَحقُّه، فأضاعُوا أوْلادَهم، وظنُّوا أنَّ ترْبِيَتَهم لهم تَقْتَصِرُ على تَوْفير المأْكَل والمشْرَب والملْبَس والمأْوَى فحَسْبُ، وغَفلُوا عَنْ تَأْديبِهم وتهذيبِهم وتَوْجِيهِهم وإرْشادِهم.

ثمَّ إذا انْحَرفَ أبْناؤُهم ونَشأُوا عاقِّينَ لهم، مُتمَرِّدِينَ عليهم أظْهرُوا تَسَخُّطًا، وأبْدَوْا تَضجُّرًا، وأكْثَروا الشَّكْوَى.

وما عَلمَ هَؤلاءِ أنَّهم هُم السَّبَبُ الأوَّلُ في ذاكَ التَّمرُّد وذاكَ العُقوق، فهُم الَّذينَ غَرَسُوا بُذورَ الانْحِراف بأيْديهم، فلا يَحْصُدُونَ إلاَّ آثارَه، ومَنْ يَغْرِس الشَّوْكَ لا يَجْني العنَبَ.

ولَوْ أنَّنا تأمَّلْنا جيِّدًا فيما نَشْكُوه من الفَساد الأخْلاقيِّ في مجتمعاتنا، وظُهورِ المنْكَرات، وانْتِهاك الحُرُمات، وزَيْغٍ في المُعْتَقَدات، وتَهاوُنٍ في القِيام بالواجِبات، لَوَجَدْنا أنَّ سَبَبَ ذلكَ كُلِّه كلِّه هُو إغْفالُ التَّرْبِيَةَ، وإهْمالُ التَّأْديب في وَقْته.

روى ابنُ أبي الدُّنْيا عن أبي التَّيَّاح عنْ أبيه قالَ:

«كُنَّا نَسْمَعُ أنَّ أقْوامًا سَحَبُوهم عِيالاتُهم على المهالك»[13].

قالَ ابنُ قَيِّم الجَوْزيَّة :

«وممَّا يَحْتاجُ إليه الطِّفلُ غايَةَ الاحْتِياج الاعْتِناءُ بأمْرِ خُلُقه، فإنَّهُ يَنْشأُ على مَا عوَّدَه المُرَبِّي في صِغَرِه، مِنْ حَرَدٍ وغضَبٍ ولجَاجٍ وعَجَلةٍ وخفَّةٍ مع هَواهُ وطَيْش وحِدَّةٍ وجَشَعٍ، فيَصْعُبُ عليه في كِبَرِه تَلافي ذلك، وتَصيرُ هذه الأخْلاقُ صفاتٍ وهيْئاتٍ راسِخَةً له، فلوْ تحرَّزَ منها غايةَ التَّحَرُّزِ فضَحتْهُ - ولا بُدَّ - يومًا مَا، ولهذا تجدُ أكْثَرَ النَّاس مُنْحرِفةً أخْلاقُهم، وذلكَ من قِبَل التَّربيَة التي نَشأَ عليها... وكَمْ ممَّنْ أشْقَى وَلَدَه وفلْذَةَ كَبِده في الدُّنيا والآخرة بإهْماله، وتَرْك تأْديبه، وإعانَته له على شَهَواته، ويزعُمُ أنَّه يُكرِمُه وقدْ أهانَه، وأنَّه يرْحَمُه وقدْ ظَلمَهُ وحَرَمَهُ، ففاتَه انْتِفاعُه بوَلَده، وفوَّتَ عليه حظَّه في

---

(11) أخرجه البخاريُّ (2554) ومسلمٌ (1829).

(12) رواه البيهقيُّ في «السُّنن الكُبرى» (5301) و«شُعَب الإيمان» (8295).

(13) كتاب «العيال» (622/2).

الدُّنْيا والآخرة، وإذا اعْتَبَرْتَ الفسادَ في الأولاد رأيْتَ عامَّتَه مِنْ قِبَلِ الآباء... فمَا أفْسَدَ الأبْناءَ مثْلُ تَغفُّل الآباء وإهمالهم واسْتِسْهالهم شَرَرَ النَّار بيْن الثِّياب، فأكْثَرُ الآباءِ يَعْتمدونَ مع أوْلادهم أعْظَمَ ما يَعْتَمدُ العَدُوُّ الشَّديدُ العَداوَة مع عَدُوِّه وهُم لا يَشْعرون، فكَمْ مِنْ وَالدٍ حَرَم وَلَدَه خيْرَ الدُّنيا والآخرة، وعرَّضَه لهلاك الدُّنيا والآخرة، وكُلُّ هذا عَواقبُ تَفْريط الآباء في حُقوق الله وإضاعَتهم لها، وإعْراضُهُم عمَّا أوْجَبَ اللهُ عليهم مِنَ العِلْم النَّافع والعَمَل الصَّالح حرَمَهم الانْتفاعَ بأوْلادهم، وحَرَمَ الأوْلادَ خَيْرَهم ونفْعَهم لهم، هُو مِنْ عُقوبَة الآباء»[14].

وقدْ جاءتْ نُصوصُ الوَحْيَيْن من كتاب الله تعالى وسُنّة رَسوله ﷺ تُبيِّنُ السَّبيلَ الأقْوَمَ، والطَّريقَ الأمْثَلَ، والمَنْهَجَ الأكْمَلَ، الذي يُحْتَذَى به في حُسْن تَرْبيَة الأوْلاد.

وذلك بالسَّعْي في حفْظهم - بالشَّرْع - منَ الشُّبُهات والشَّهَوات، وإبْعادهم عن المعاصي والمُنْكَرات، وإلْزامهم بالتَّمَسُّك بأُمور الدِّين - قَوْلاً، واعْتقادًا، وعَمَلاً -.

وإنَّ تَخَلِّي الآباء عنْ هذه الوَاجبات، وإهْمالَهم رعايَةَ البَنينَ والبَنات، وتفْريطَهم في أداء هذه الأمانات، خَلَلٌ واضحٌ وخطأٌ فادحٌ، وفي ذلك أشَدُّ الخَطَر، وأكْبَرُ الضَّرَر، وأعْظَمُ الشَّرِّ، ويَنْتُجُ عنه عَواقبُ وَخيمَةٌ، وأضْرارٌ جَسيمَةٌ، ولأنْ يَخْسَرَ الآباءُ أمْوالَهم، ويُضيِّعُوا ثَرْوتَهم، أهْونُ وأيْسرُ منْ أنْ يَخْسَرُوا عقائدَ أبنائهم وأخلاقَهم.

قالَ اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم].

أيْ: «مُرُوهُم بالمَعْروف، وانْهَوْهم عن المُنْكر، ولا تَدَعُوهم هَمَلاً فتأكُلُهم النَّارُ - يوْمَ القيامة -»[15].

قالَ البَغَويُّ:

«وفي تَعْليمهم أحْكامَ الدِّين، وشَرائعَ الإسْلام، قيامٌ بحفْظهم عنْ عَذاب النَّار»[16].

«وقال بعضُ أهل العلْم: إنَّ اللهَ سُبحانهُ يَسْألُ الوَالدَ عنْ وَلَده - يومَ القيامَة - قبْلَ أنْ يَسْألَ الوَلَدَ عن وَالده، فإنَّهُ كما أنَّ للأَب على ابْنه حقًّا، فَلِلابْن على أبيه حقٌّ، فكَما قالَ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8]، قالَ تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾»[17].

فإذا كُنْتَ أيُّها الأبُ الرَّحيمُ! تَصونُ وَلَدَك من نارِ الدُّنْيا، وتحْفَظُه منها أشَدَّ الحفْظ، وتخْشَى عليه منها أعْظَمَ الخَشْيَة، وما هي سوَى جُزْءٍ منْ سَبْعينَ جُزْءً منْ نار جَهَنَّمَ[18]، فكيْفَ تَطيبُ نفْسُك أنْ تُسلِّمَ فلْذَةَ كَبدك لنار الآخرة، وتَقْذفُه فيها بسوءِ تَرْبيَتكَ له؟! وكيْفَ تَتْرُكُه يَبْتعدُ عنْ تَعاليم الإسْلام، ويَسْتَهينُ بأوامره وفَضائله ولا يَعْمَلُ بها، ويَرْتَكبُ نَواهيَه وزَواجرَه ولا يُبالي بذلكَ؟!

◪ ◪ ◪

وإنْ سَألْتَني وقُلْتَ:

● كيْفَ أقِي وَلَدِي النَّارَ، وأُجَنِّبُه حرَّها ولهَبَها؟

فالجوابُ:

○ إنَّ وقايَتَك لوَلَدك تكونُ ببَيانِ الحقِّ له وأمْره

---

(14) «تُحْفَة المودود بأحكام المولود» (ص240 - 241).

(15) أُنظر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (5/240).

(16) «شرح السُّنة» (2/408).

(17) قاله ابنُ القيِّم في «تُحفة المودود بأحكام المولود» (ص: 231).

(18) أخرج البخاريُّ (3265) ومسلمٌ (2843) - واللّفْظُ له - عنْ أبي هريرة ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «نَارُكُم هذه الَّتي يُوقدُ ابْنُ آدَمَ جُزءٌ منْ سَبْعينَ جُزْءًا منْ حَرِّ جهنَّمَ»، قالوا: والله إنْ كانتْ لكافية يا رسول الله! قال: «فإنَّها فُضِّلتْ عَلَيْهَا بتِسْعَةٍ وَستِّين جُزْءًا، كلُّها مثلُ حرِّها».

باتّباعه والعَمَل به، وببَيانِ الباطل وإبْرازِ أضْراره، وتَحْذيره منْه ومنَ الوُقوع فيه، وبالحِرْص على تَعْويده على الطَّاعة وتَحْبيبها له، وتَبْغيضه المَعْصيَةَ وتَنْفيره منْها، لا سِيَما إنْ كانَ صَغيرًا؛ لأنَّ التَّرْبِيَةَ في الصِّغَرِ كالنَّقْشِ على الحَجَر.

ويَظْهَرُ منْ خلالِ النُّصوص الَّتي سيقَتْ آنفًا وُجوبُ تَرْبِيَة الأوْلاد على الدِّين والخُلُق؛ لأنَّهم أمَانَةٌ في أعْناق أوْليائهم، و«**إنَّ الله سائلٌ كُلَّ راعٍ عمَّا اسْتَرْعاه، أحَفظَ ذلكَ أمْ ضيَّعَ؟ حتَّى يَسْألَ الرَّجُلَ على أهْلِ بَيْته**»[19]، «واسْتُدِلَّ به على أنَّ المُكَلَّفَ يُؤَاخَذُ بالتَّقْصيرِ في أمْرِ مَنْ هُو في حُكْمه»[20].

وإنَّ أَوْلى النَّاس ببِرِّ الرَّجُل، وأحَقَّهم بمَعْروفه، هُم أبْناؤُه وذُرِّيَّتُه.

وأَفْضَلُ ما يَمْنَحُهم إيَّاه هو تَرْبِيَتُهم وتهذيبُهم، وذاكَ منْ حَقِّهم عليه.

قالَ رسُولُ اللّه ﷺ:

«**وَإنَّ لِوَلَدِك عَلَيْك حقًّا**»[21].

و«فيه أنَّ على الأبِ تَأْديبَ وَلَده، وتَعْليمَه ما يَحْتاجُ إليه منْ وَظائف الدِّين، وهذا التَّعْليمُ واجبٌ على الأبِ وسائرِ الأوْلياء قبْلَ بُلوغ الصَّبيِّ والصَّبيَّة، نَصَّ عليه الشّافعيُّ وأصْحابُه، قالَ الشَّافعيُّ وأصْحابُه: وعلى الأمَّهَات ـ أيْضًا ـ هذا التَّعْليمُ إذا لم يَكُنْ أبٌ؛ لأنَّه منْ باب التَّرْبيَة، ولهُنَّ مَدْخَلٌ في ذلكَ، وأُجْرَةُ هذا التَّعْليم في مالِ الصَّبيِّ، فإنْ لم يَكُنْ له مالٌ فعَلَى مَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُه؛ لأنَّه ممَّا يَحْتاجُ إليه، واللّه أعْلَمُ»[22].

قالَ جمالَ الدين القاسمي:

«والصَّبيُّ أمانَةٌ عنْدَ وَالدَيْه، وقَلْبُه الطَّاهرُ جَوْهَرَةٌ نَفيسَةٌ سَاذَجَةٌ خَاليَةٌ عنْ كُلِّ نَقْش وصورة... فإنْ عُوِّدَ الخيْرَ وعُلِّمَه نَشَأَ عليه، وسَعدَ في الدُّنْيا والآخرة، وشاركه في ثَوابه أَبَواهُ وكلُّ مُعلِّم له و مُؤدِّب، وإنْ عُوِّدَ الشَّرَّ وأُهْمِلَ إهْمالَ البَهائم شَقيَ وهلَكَ وكانَ الوِزْرُ في رَقَبَة القيِّم عليه»[23].

يُتبع ■■■

* قال إبراهيم النخعي ‬: ‬:
«كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»
[صحيح البخاري (3651)]

■ ■ ■

* قال قتادة ‬: ‬:
«كان يقال: إذا بلغ الغلام فلم يزوجه أبوه فأصاب فاحشة أثم الأب».
[كتاب العيال لابن أبي الدنيا (172)]

(19) أخرجه النّسائيُّ في «السُّنن الكُبرى» (9129) وابنُ حبَّان في «صحيحه» (4493)، وهو في «السِّلسلة الصَّحيحة» للألبانيّ (1636).
(20) قاله ابنُ حَجَر في «فتح الباري» (113/13).
(21) أخرجه مسلمٌ (1159).
(22) قاله النّوويُّ في «شرح مسلم» (43/8).
(23) «موعظة المؤمنين» (ص278).

النبراس في تصحيح كلام النَّاس

عمر الحاج مسعود

أذكر لإخواني القرَّاء في هذا المقال عبارات مشتهرة، مع التَّوجيه والتَّصحيح، ومن الله أستمدُّ العون والتَّوفيق.

المَرْسُول مَا يَسْتَحِي مَا يْخَافْ

▪ المقصود بهذه العبارة أنَّ المرسول وهو الرَّسول الَّذي أُرسل لتبليغ شيء ينبغي أن يقوم بذلك دون حَرَج ولا استحياء؛ أداءً للأمانة وتبليغًا للرِّسالة، فما دام أنَّه مبلِّغ، ينبغي أن لا يخاف ولا يستحيي مهما كان مضمون الرِّسالة ولغتها وعباراتها، ومهما كان مقصودها ونتائجها.

▪ وهذا فيه تفصيل:

◪ فإن كان الخطاب يتضمَّن سبًّا وفحشًا وظلمًا وفجورًا؛ فينبغي أن يُطوى ويُكتم، ويُنصح صاحبه، ويُؤخذ بيده ويُنصر المظلوم ويُدفع عنه الظُّلم؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّه! أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ: «**تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**»[1].

فإن كان المرسل ظالمًا في معاملته معتديًا في خطابه؛ فكيف يبلِّغه المرسول، ويُقال له: لا تستح ولا تخف؟! عجبًا كيف يراد منه ترك الحياء! وهو مطلوب في مثل هذا الموطن، حيث يمنع صاحبه من اجتراح المنكر والإعانة على الظُّلم.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[2].

وكذلك قد يترتَّب على الخطاب إثمٌ وعدوان، وأضرار ومفاسد، فكيف يُوصَلُ إلى المرسَل إليه، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ**»[3].

◪ أمَّا إذا كان الكلام حقًّا وصدقًا وليس فيه ظلم ولا فحش، ولا ينتج عنه شرٌّ ولا ضررٌ؛ فينبغي تبليغه وإيصاله إلى صاحبه؛ وحينئذ إن استعمل المثل في هذا المذكور فلا مانع من التَّمثُّل به، والله أعلم.

يَا صُغْرِي اخْدَمْ لْكُبْرِي، وْيَا كُبْرِي اخْدَمْ لْقَبْرِي

▪ المقصود بهذه العبارة أنَّ الشَّابَّ ينبغي أن يغتنمَ صغرَه وزَهْرَةَ عُمُرِه في العمل لعمارة دنياه والحرص على بلوغ مُنَاه، فإذا استمتع بخلاقه وشبع من رغبته، وكبرت

(1) رواه البخاري (6952).

(2) رواه البخاري (9)، ومسلم (35).

(3) انظر: «الإرواء» (3/480).

سنُّه وذهبت قوَّتُه وضعفت شهوته وانحنى ظهره تفرَّغ لعبادة ربِّه واشتغل بالعمل لآخرته.

■ وهذا فيه عدَّة محذورات:

❶ المنافاة لِمَا ينبغي أن يكون عليه البالغُ الحُلُمَ من فعل الواجبات واجتناب المحرَّمات والحرص على الخيرات والاستعداد للقاء ربِّ الأرض والسَّموات، ولا يخفى أنَّ العمل في الشَّباب أفضل وأعظم، لذا قال الرَّسول ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ...**» الحديث[4]، قال ابن الجوزي رحمه الله: «وكان خلقٌ كثيرٌ يتأسَّفون في حال الكِبَر على تضييع موسم الشَّباب ويبكُونَ عَلَى التَّفريط فيه، فليُطِل القيام من سيقعُد، وليُكثر الصِّيامَ مَن سيَعجز»[5].

❷ ترغيب الشَّباب في طول الأمل، وتحريضهم على الانغماس في الدُّنيا والحرص عليها والمنافسة فيها، وهذا خلاف ما أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت]، وذكر عن مؤمن آل فرعون أنَّه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[6].

في هذا الحديث حثٌّ على الزُّهد في الفانية والرَّغبة في الباقية، وترغيب في قصر الأمل والاستعداد للقاء الله تعالى، وتحريض على التَّوبة وصالح العمل.

قال عونُ بنُ عبد الله رحمه الله: «ما أحدٌ يُنْزِلُ الموتَ حقَّ منزلته إلاَّ عبدٌ عَدَّ غدًا ليس من أجله، كم من مُستقبل يومًا لا يستكمِلُه وراجِ غدًا لا يبلغه، إنَّك لو ترى الأجلَ ومسيرَه لأبغضتَ الأملَ وغرورَه»[7].

❸ التَّسويف بالعمل الصَّالح وتأخيره إلى الكِبَر، وهل يدري الإنسان أنَّه سيعيش ويكْبُر، ثمَّ يتفرَّغ للعبادة ويعمل للقبر؟ إنَّ هذا لَهُوَ الغرور، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]، والغرور ـ بفتح الغين ـ: الشَّيطان، في قول غير واحد من السَّلف[8].

إنَّ العبد ـ وبخاصَّة إذا كان شابًّا ـ يمدح على التَّأنِّي والتَّريُّث إلاَّ في عمل الآخرة، إذ تنبغي المبادرة إليه، قال النَّبيُّ ﷺ: «**التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ**»[9]، وقال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[10]، وقال كذلك: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ...**» الحديث[11]، وقال بعض السَّلف: «أنذركم «سوف»؛ فإنَّها أكبر جنود إبليس»[12].

نعم؛ ينبغي للكبير أن يتفرَّغ للعبادة أكثر، ويحرص

(4) رواه البخاري (660) ومسلم (1031).
(5) «تنبيه النَّائم الغمر على مواسم العمر» (2).
(6) رواه البخاري (6416).
(7) أخرجه ابن أبي شيبة (36110).
(8) انظر «تفسير الطَّبري» (20/159)
(9) رواه أبو داود (4810)، والحاكم (1/62) وهو صحيح، انظر: «الصَّحيحة» (1794)، والتُّؤدة: التَّأنِّي، ضدُّ العجلة.
(10) رواه مسلم (118).
(11) رواه الحاكم (4/306)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبي والألباني، [«صحيح الترغيب» (3355)].
(12) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (487).



على التَّوبة أشدّ، ندمًا على تفريطه وخوفًا من ذنوبه؛ لأنَّه لم يبق له عذر، قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَعْذَرَ اللهُ إلى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**»[13]، «أعذر»؛ أي: لم يترك له عُذْرًا إذْ أمهله هذه المدَّة، يُقال: أعذر الرَّجلُ؛ إذا بلغ الغاية في العذر[14].

يا قليل المقام في هذه الدُّنيا
إلى كم يغرك التسويف
يا طالب الزَّائل حتَّى متى
قلبك بالزائل مشغوف[15]

دِيرْ، أو اعْمَل، كمَا جَارَكْ
وَلاَّ حَوَّلْ بَابْ دَارَكْ

■ يعني افعل مثل ما يفعله جارك من عادات وتقاليد ولا تخالف، وسايره ولا تعاكس؛ فإن لم يعجبك ذلك ولم تطمئنَّ إليه؛ فغيِّر سكناك وانتقل إلى مكان آخر.

◢ إذا كان العرف ـ أو العادة ـ غير مخالف للشَّرع، فينبغي اتِّباعه طلبًا للألفة واجتنابًا للشُّهرة.

◢ أمَّا إذا كان المقصود اتِّباع الجار في كلِّ شيءٍ حتَّى ولو كان مخالفًا للشَّرع ـ ولعلَّ هذا هو المقصود ـ، ففي العبارة دعوة إلى ثلاث مخالفات:

❶ السُّكوتُ عن المنكر وعدمُ النَّهي عنه، فالجار قد يخالف الشَّرع ويقع في المعصية، وأنت ساكت وربَّما مداهن أو موافق، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة]، ويقول النَّبيُّ ﷺ: «**والَّذي نفسي بيده؛ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوف وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْ عِنْدِه ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ**»[16].

❷ موافقة الجار في الخير والشَّرِّ، والصَّلاح والفساد، والرُّشد والغيِّ، وهذا حال الإمَّعَة الَّذي يوافق النَّاس في كلِّ شيء، ولو كان في سخط الله، قال عبد الله بن مسعود ﭬ: «اغْدُ عالمًا أو متعلِّمًا ولا تغْدُ إمَّعَةً بين ذلك»[17].

❸ إرضاءُ النَّاس ولو بسخط الله وموافقتهم على باطلهم، وهذا هو الخسران المبين والغَبن المَشين، وفاعل ذلك ينقلب عليه حامده ذامًّا، ويكون الله عليه ساخطًا، قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ الْتَمَسَ رضى الله بِسَخَطِ النَّاس رضيَ اللهُ عنه، وأَرْضَى النَّاسَ عنه، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[18].

إنَّ العاقل يسعى إلى مرضاة الله ربِّه وينصح لجيرانه، ويجتنَّب إساءَتهم وموافقَتهم على باطلهم وهواهم، ويصبر على جهلهم وأذاهم، ومن «هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرَّم وصبر على أذاهم وعداوتهم ثمَّ تكون له العاقبة في الدُّنيا والآخرة، كما جرى للرُّسل وأتباعهم مع من آذاهم وعاداهم، مثل المهاجرين في هذه الأمَّة ومن ابتلي من علمائها وعبَّادها وتجَّارها ووُلاتها»[19].

والله أعلم، وصلَّى الله على عبده ورسوله محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

(13) رواه البخاري (6419).
(14) «رياض الصَّالحين» للنَّووي (67).
(15) «لطائف المعارف» لابن رجب (356).
(16) أخرجه أحمد (5/389)، والتِّرمذي (2169)، وهو حسن، انظر «صحيح الجامع» للألباني (7070).
(17) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (145)، وإسناده حسن.
(18) رواه ابن حبَّان، وقال الألباني: «صحيح لغيره» [«صحيح موارد الظمآن» (1282)].
(19) قاله ابن تيمية في «جامع المسائل» (2/ 56). تحقيق عزير شمس.

الفوائد والنوادر

فلاح أمة الإسلام

■ قال الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري (ت1370):

«فإن فلاح الأمة في صلاح أعمالها، وصلاح أعمالها في صحة علومها، وصحة علومها أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون، فمن تحدث في العلم بغير أمانة، فقد مس العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة».

«رسائل الإصلاح» (1/ 13)

العلم ما نفع

■ قال محمد بن شهاب الزهري:

«إن هذا العلم أدب الله الذي أدَّب به نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأدب به النبي ﷺ أمته، وهو أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أُدِّيَ إليه، فمن سمع علما فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله تعالى».

«معرفة علوم الحديث» للحاكم (ص63)

كيف نسترجع اللسان العربي؟

■ قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:

«لا عُدة لنا اليوم في الفصاحة إلا القرآن وناهيك به عدة، ولكن قراءة الناس إياه في الصغر وإهمال التذكير بمعانيه في المكاتب، والشغل عن درسه في الكبر؛ أرزأ الناس فائدة عظيمة يبلغون بها رتبة مكينة من علم اللسان».

«أليس الصبح بقريب» (ص190)

الجزاء من جنس العمل

■ قال مالك بن أنس:

«أدركت بهذه البلدة ـ يعني المدينة ـ أقواما لم يكن لهم عيوب، فعابوا الناس فصارت لهم عيوب، وأدركت بهذه البلدة أقواما كانت لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس، فنسيت عيوبهم».

«الفوائد لابن مندة» (1/ 166)

السلامة من الفتن

■ قال ابن بطة:

«فإن هذه الفتن والأهواء قد فضحت خلقا كثيرا، وكشفت أستارهم عن أصول قبيحة، فإن أصون الناس لنفسه؛ أحفظهم للسانه، وأشغلهم بدينه، وأتركهم لما لا يعنيه».

«الإبانة الكبرى» (2/ 596)

فضل تبليغ سنة النبي ﷺ

■ قال ابن قيم الجوزية:

«وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه».

«جلاء الأفهام» (ص491)

المسابقة الأولى لمجلة الإصلاح

الغرض من هذه المسابقة:

- توسيع دائرة قرَّاء المجلَّة بضمِّ قرَّاء جدد إليها.
- دفع القرَّاء إلى الاطِّلاع على أغلب وأكثر المقالات المنشورة في جميع أعداد المجلَّة.
- السَّعي إلى تحسين صورة المجلَّة، بتدعيم أبوابها والذي من شأنه أن يزيد من التَّواصل مع القراء.

شروط المشاركة في المسابقة

لا تشترط المجلة سنًّا معيَّنة، بل هي مفتوحة لجميع قرَّائها ـ ذكورًا وإناثًا ـ داخل الوطن وخارجه.

وهذه شروطها:

1 ـ أن تكون الإجابة على جميع الأسئلة المطروحة بدون استثناء وعلى التَّرتيب الوارد (من 1 إلى 18).

2 ـ وبخطٍّ واضح مقروء؛ وحبَّذا لو تكون بالحاسوب.

3 ـ الإحالة إلى عنوان المقال وصفحته وعدد المجلة.

4 ـ ترسل الإجابات على البريد الإلكتروني لدار الفضيلة: darelfadhila@maktoob.com

أو عن طريق البريد العادي:

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

5 ـ في أجل لا يتعدَّى شهرين من تاريخ صدور العدد الأخير من المجلَّة (18) مع كتابة الاسم واللَّقب والعنوان الشَّخصي ورقم الهاتف.

تنبيه: تصرف جوائز معتبرة للفائزين العشر الأوائل من كل جنس.

الأسئلة:

1. في الإصلاح معنى زائد على الصَّلاح، وضِّح ذلك.

2. هل يُقال عن الميِّت: «المتوفِّي» أم «المتوفَّى»؟ علِّل إجابتك.

3. مدخل الشَّيطان على ابن آدم من جهات، اذكر ثلاثًا منها.

4. لماذا شُرع الصَّوم؟

5. اذكر أين صرَّح رسول الله ﷺ أنَّ تسلُّط السُّلطان على النَّاس بظلمه مبدؤه تسليط ذنوبهم عليهم أوَّلاً؟

6. من القائل؟

فدعني من غرناطـة وديارها
وشنيل فالحسن انتهى للجزائر
وما تفضل الحمراء بيضاء عادة
مقـرطـة بالبـدر ذات غدائـر

7. الإرادة المتعلِّقة بالله تعالى نوعان، اذكرهما واذكر الفرق بينهما.

8. ذكر العلاَّمة القرطبي ضابطًا للظَّنِّ الذي يجب اجتنابه، ما هو؟

9. كيف يحفظ المسلم الله عز وجل؟ دلِّل على إجابتك بكلام عالم.

10. اذكر المعنى الأوَّل للزوم الجماعة.

11. حكم دعاء المسلم لأخيه بطلب منه له صورتان، اذكرهما.

12. أطلق على أهل السُّنَّة والجماعة أسماء وألقاب تدلُّ على منهجهم الحقِّ وطريقتهم في الدِّين، اذكر أربعة منها.

13. اذكر نصًّا من الكتاب وآخر من السُّنَّة يدلاَّن على نصرة الله وعصمته لمن قام بواجب التَّبليغ والدَّعوة إلى الله.

14. صحابي جليل عُرف بحرصه على إسداء النُّصح للمسلمين وفاءً بالعهد والبيعة التي قطعها مع النَّبيِّ ﷺ.

من هو هذا الصحابي؟ واذكر نموذجين من نصحه رضي الله عنه.

15. أرجوزة بديعة في التمسك بالسنة وهدي السلف والإنكار على أهل البدع لأحد أئمة المالكية المشهورين.

من هو؟ وما اسم أرجوزته؟ واذكر بيتين منها.

16. وصية غالية من أم لولدها حصل له بها نفع عظيم حتى غدا من كبار علماء الإسلام فقها وحديثا.

ما اسم هذا العالم؟ واذكر وصية أمه له.

17. كتاب عظيم أطبقت شهرته الآفاق، وموسوعة علمية لتراجم الأعلام، جمع فيه مؤلفه حوادث قرابة سبعمائة عام.

ما اسم هذا الكتاب؟ ومن هو مؤلفه؟

18. من رجالات الإصلاح في الجزائر، تألم الشيخ ابن باديس لفقده ونعته بالشجاع، شارك في تأسيس بعض الصحف والجرائد.

من هو؟ اذكر صحيفتين شارك في تأسيسهما وتحريرهما.